سعيد القاضي

بطولات صنعت التاريخ

(١-١٤)

قدم له

فضيلة الشيخ مصطفى العدوي

الدار العالمية للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٣ - ٢٠٢٢

رقم الإيداع

٢٠٢٢/٢٢٨٢

الترقيم الدولي

٩٧٨-٩٧٧-٧٤٤-٤١٥-٦

الدار العالمية للنشر والتوزيع

٣١ ش الصالحي - محطة مصر - الإسكندرية

ت ٠٠٢٠٣٤٩٧٠٣٧٠ - فاكس ٠٠٢٠٣٣٩٠٧٣٠٥

محمول ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣

فهرست

تقديم ٧
أيتها الشمس لا تغربي ١٢
حديقة الموت ٢٦
المهمة المستحيلة ٣٨
صادع بالحق في وجه الطغيان ٥٢
أترد على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره ٦٤
روحي لك الفداء ٧٣
القرار الشجاع ٨٨
اللحظة الفارقة ١٠٤
همّة تعانق السماء ١١٦
عجوز بني إسرائيل ١٤٢
رفيق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة ١٥٠
فأين الله؟ ١٥٦
باسم الله رب الغلام ١٦٢
واهًا لريح الجنة ١٨٨

تقديم فضيلة الشيخ
مصطفى العدوي

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله، وبعد؛ فهذا بحثٌ أعدَّه أخي في الله الشيخ سعيد القاضي وفَّقه الله تعالي، بحثٌ يتعلقُ بالتذكيرِ بسلفٍ كرامٍ، هم لنا أسوةٌ، قد سجَّلوا قصصًا سُطِّرَتْ في سجِّل أعمالِهم، قصصًا يُستضَاءُ بها ويُستَنارُ بها.

ولا يخفي عليكم أن الله تعالي قد قال في كتابِه الكريم: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال تعالي في شأنِ أنبيائِه الكرامِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فالقصصُ القرآنيُّ وقصصُ الصحابةِ وقصصُ التابعين كلُّها تُعطِي دفعةً قويَّةً لأهلِ الإيمانِ، وكلُّها تشحَذُ همَمَهم إلي البذلِ والعطاءِ.

وقد قال تعالي في كتابِه الكريمِ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالي لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فالقصص تشحَذُ الهممَ، وتحمِلُ علي التأسِّي والاقتداءِ، فإذا نظرتَ إلي قصصِ الصالحين وأنت والحمد لله قد استقرَّ في قلبِك الإيمانُ فإن ذكراهم تنفعُك، وقد قال تعالي في كتابِه الكريمِ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

❑ فهذه مجموعة من القصص أسماها **أخي الشيخ سعيد**: «**بطولات صنعت التاريخ**»، أسأل الله أن يجعلَها منارةَ خيرٍ يُقتدَي بها، ويُأتسَي بها، وأن يُجازيَ أخي الشيخ سعيد خيرَ الجزاءِ علي ما صنع؛ فنحسبُه نفَّاعًا للمسلمين، وكتاباته ولله الحمد تشحَذُ الهممَ.

هذا ولأخي الشيخ سعيد - وفَّقه الله لكلِّ خيرٍ - بعضَ الكتبِ النافعةِ، وقد قمتُ بمراجعتِها ومراجعةِ

هذا الكتاب الذي بين يديك أيضًا؛ ككتاب: «**الملائكة المقربون**»، وكتاب «**الجامع لكبائر الذنوب**»، وهو كتابٌ قيِّمٌ، أصَّل فيه الأصولَ التي يُحكَم علي الأمرِ أنه كبيرةٌ أو ليست بكبيرةٍ، فشاهدي أن له كتبًا نافعةً أخري غير الكتابِ الذي بين أيدينا.

فأسألُ الله أن يُديمَ به نفعَ الإسلامِ والمسلمين، وأن يوفِّقَه لمزيدٍ من البذلِ والعطاءِ، وتعلُّمِ العلم الشرعيّ المتمثل في كتابِ الله، وسنة رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوابع ذلك من الفقه في الدين، والتوحيد، ونحو ذلك، أسألُ الله أن يزيدَه توفيقًا وإيمانًا، وأن يجعلَ هذا العلمَ حجَّةً لنا وله لا حجَّةً علينا وعليه، وأن ينفعَ به الإسلامَ والمسلمين، اللهم آمين، وصلِّ اللهمَّ وسلم علىٰ سيدِنا محمدٍ [١].

وكتبه/ مصطفى العدوي

---

(١) أرسل لي شيخنا المبارك حفظه الله هذه المقدمة مسجلةً بصوته، وكان في مكة لأداء العمرة، يوم الأحد ٢٢ جمادى الأولى ١٤٤٣، فجزاه الله عني وعن المسلمين خير الجزاء، وزاده علمًا نافعًا، وعملًا متقبَّلًا، ورفعةً في الدنيا والآخرة، اللهم آمين.

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله، وبعد؛ ففي زمان غربةِ الدين الذي نعيشُه، حيث علا الكفرُ وبزغ نجمُه في السماء، وكادت شمسُ الإسلام تغربُ لولا عنايةُ الله وحفظُه لهذا الدين، شعر كثيرٌ من المسلمين بالقَزامة، وامتلئت قلوبُهم بالإحباطِ واليأسِ، ووقعوا في أشنعِ الهزائم وهي الهزيمة النفسيّةُ، فانسلخوا من دينِهم، وصاروا يتشبهون بأهلِ الكفر في كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ، كما أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بذلك.

وفي ظلِّ تشويهِ القيمِ، وتزويرِ التاريخ، ومع انتشار السينما تغيَّرت كثيرٌ من المفاهيم، وصنع أعداؤنا أبطالًا رَوَّجوا لهم وألبسوهم تاجَ المجد، وهم في الحقيقة أقزامٌ في تاريخ الإسلام، وجاء هؤلاء الأفَّاكُون فزَوَّروا تاريخَنا المجيدَ، وألصَقوا بعظماءِ الإسلامِ كلَّ نقيصةٍ ومَذمَّةٍ.

ثم صنعوا لنا أبطالًا مزيَّفين، وروَّجوا لانتشارِهم بين المسلمين، فعمَّ الفسادُ بين الناس، وساءتِ الأخلاقُ والقيمُ، وصار يُنظَرُ إلىٰ أهل الديانةِ علىٰ أنهم متشددون متخلِّفون عن ركب الحضارةِ، ويُنظر إلىٰ أهل الفسوقِ والفجورِ علىٰ أنهم متنورون مواكِبون للحضارةِ والرُّقِي.

لأجل كلِّ هذا كان لابد من الرجوعِ إلىٰ تاريخِنا المجيدِ، وحكايةِ البطولاتِ النادرةِ علىٰ شبابِ هذا الجيلِ ليستعيدَ هويتَه المفقودة، واعتزازَه بدينه، وفخرَه بتاريخِه المشرقِ، لهذا عزمتُ علىٰ كتابة هذا الكتابِ الذي بين يديك؛ ليكون طليعةً لأعدادٍ أخرىٰ تتبعه إن شاء الله، وما توفيقي إلا بالله، هو عوني ومنه أستمِدّ قوَّتي، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وكتبه

سعيد القاضي

مصر - كفر الشيخ

٢٧ صفر ١٤٤٣هـ

١

أيّتها الشمسُ لا تغربي

قوة اليقين في الله، والثقةِ بوعد الله، هذه بطولة قِصَّتنا. في أَحلكِ الظُّروف، وأصعبِ المواقف، وأحرج الساعات، حين تَعظُم الشدائدُ، وتشتدّ المِحَن، ويتراكم البلاء فوق البلاء، وينقطع الرجاءُ من أهل الأرض، حينها يكون المَفزعُ إلىٰ رب الأرض والسماء.

تبدأ الحكاية لمّا خرج موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من مصر ومعه بنو إسرائيل فرارًا من بَطشِ فرعونَ وظُلمِه، وتبعهم الطاغيةُ يريد استِئصالَ شَأفتِهم والقضاءَ عليهم، لكنّ الله سبحانه نجاهم بفضلهِ ومَنِّه، فساروا نحو الأرض المباركة أرض الشّام.

أرض الجبارين:

وفي أرض الشّام في بلاد بيت المقدس كان يعيش قومٌ من الجَبّارين من الحَيثَانيين، والفزَاريين،

والكَنعانيين، وغيرِهم، وكان الله تعالىٰ قد كتب هذه الأرضَ المباركةَ لذُرِّية إبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ووعدهم إياها، فحَفَّز موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قومَه ورغَّبهم في الجهاد في سبيل الله، وقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

تخاذل بني إسرائيل:

لكنهم أَبَوا وأَعرضوا وعاندوا وتخاذلوا، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

وهنا يشير عليهم بالإقدام والشجاعة رجلان صالحان شُجاعان مِقدامان، قد آتاهما الله فَهمًا حسَنًا، وبصيرةً وهدايةً، فقالا لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، لقد كان هذان الرجلان يُوشَعُ ابن نونٍ، وكالبُ بن يوفنَّا.

وهنا يُصِرّ بنو إسرائيل علىٰ العناد والخذلان، ويقولون: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ربي لا أملك إلا نفسي:

فيُقال: إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقَّا ثيابهما، وإن موسىٰ وهارون عليهما السلام سجدا؛ إعظامًا لهذا الكلام وغضبًا لله عزّ وجلّ، وشفقةً عليهم من وَبِيل هذه المقالة.

وعندما سمع موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مقالةَ قومِه لجأ إلىٰ ربِّه قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، اقضِ بيني وبينهم ياربي.

ويكون حُكْمُ الله تعالىٰ في هؤلاءِ العُصاة المجرمين بأن قال لموسىٰ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ

يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، فعوقبوا علىٰ نكولهم[١] بالتَّيهان في الأرض، يسيرون إلىٰ غير مقصد، ليلًا ونهارًا، وصباحًا ومساءً.

فيُقال: إنه لم يخرج أحدٌ من التيه ممن دخلَه، بل ماتوا كلُّهم في مدة أربعين سنة، ولم يبقَ إلا ذراريهم، سوىٰ يُوشع وكالب عليهما السلام.

فمن يُوشَعُ بن نون؟

إنه يُوشَع بن نون بن أَفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. إنه الفتىٰ الذي لازم موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سنينَ طويلةً ينهَلُ من عِلمه، ويهتدي بهداه، إنه الفتىٰ الذي ذكره الله تعالىٰ في قصة موسىٰ والخِضْر، في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

---

(١) أي: امتناعهم ورجوعهم.

وتمضي الأيام والشهور بل والسّنون وهؤلاء المنقلبون علىٰ أعقابهم يهيمون في التِّيه، وينشأُ جيلٌ جديدٌ في بني إسرائيل تربّىٰ علىٰ الإيمان بالله تعالىٰ، والاستسلام والانقيادِ لأمرِه سبحانه، وها هي الأربعون عامًا توشك علىٰ الانقضاء، وما زال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في شوقٍ إلىٰ تنفيذ أمر ربِّه، والخروج لقتال هؤلاء الجبارين، وإمتاع ناظِرَيْه برؤية القدس، تلك الأرض المباركة.

۞ الإعداد للمعركة الفاصلة:

ويأتي الأمر من رب العالمين إلىٰ نبيِّه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن يُعِدَّ بني إسرائيل ليتأهبوا لقتال الجبّارين، فقد أوشكت الغُمَّة أن تُرفَع، وقَرُب الفرجُ.

وكان بنو إسرائيل مقسّمين إلىٰ أَسْباط، وهم بُطُون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل وهو يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهم اثنا عشر سِبْطًا.

فجعل موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ كل سِبْطٍ من الاثني عشر أميرًا، وهو النقيب، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢].

فكتب موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسماءَ المقاتلة من بني إسرائيل، ممن يحمِلُ السلاحَ ويقاتل، ممن بلغ عشرين سنةً فصاعدًا علىٰ ما يذكرون، وجعل علىٰ كل سبطٍ نقيبًا منهم؛ فيُقال أن جملةَ ما ذُكِر من المُقَاتِلةِ: خمسمائةُ ألف وواحدٌ وسبعون ألفًا.

ويشاء الله بحكمته أن يموت هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبنو إسرائيل ما يزالون في التِّيه، ثم بعده بسنتين

يموت موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل انقضاء سنوات التِّيه، مات عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والأشواقُ إلىٰ القدس تغمُر قلبَه، فيسأل ربَّه: «**اللهم أَدْنِني من الأرض المقدسة رميةً بحجرٍ**».

۞ جيشٌ لا يُهزَم:

وكانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياءُ، كلَّما مات نبيٌّ خلَفَه نبيٌّ، فلما مات موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلفه يوشع بن نون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبدأ يعيد ترتيبَ الجيش قبل أن يذهب لقتال الجبارين.

وأراد يُوشَع عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ألَّا يذهبَ معه إلا رجلٌ قد وهب نفسَه وقلبَه وحياتَه لله تعالىٰ، فلا يزالُ مشهد تولِّي بني إسرائيل وانقلابِهم علىٰ أعقابهم وخذلانِهم لنبيِّهم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يفارقُ عينيه.

أراد يُوشَع عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ألَّا يذهب معه للقتال رجلٌ تعلَّق قلبُه بالدنيا، وانخدع بمفاتنِها وزينتِها، وألا ينشغلَ قلبُه بشيء منها ولو كان حلالًا، لقد أراد رجالًا يبذُلُون

أرواحَهم رخيصةً في سبيل الله، أراد رجالًا قويّةً قلوبُهم، لا يهابون الموت، ولا يخشون إلّا الله، عزيمتُهم حديدٌ، وبأسُهم شديدٌ.

◈ قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومِه:

- لا يتبعْني رجلٌ وله حاجةٌ في الرجوعِ.

- لا يتبعني رجلٌ قد مَلك بُضْعَ امرأةٍ، وهو يريدُ أن يبنيَ بها، ولَمَّا يَبْنِ[١].

- ولا رجلٌ قد بنىٰ بُنيانًا، لم يفرُغ منه.

- ولا آخرُ قد اشترىٰ غنمًا أو خَلِفاتٍ[٢]، وهو منتظرٌ وِلادَه.

لقد أراد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ألّا يأخذ رجلًا تَعَلّق قلبُه بشيء

(١) «**بُضْع**»: البضع يطلق على الفرج والتزويج والجماع، والمعاني الثلاثة لائقة هنا.

«**ولَمَّا يبْنِ بها**»: ولم يدخلْ عليها.

(٢) «**خَلِفات**»: جمع خَلِفة، وهي الحامل من النُّوق، وقد يطلق علىٰ غيرِ النُّوق.

من هذه الأمور، حتىٰ يُقبِلَ علىٰ القتال في سبيل الله بذهنٍ صافٍ، وقلبٍ خالٍ، من مشاغل الدنيا ومفاتنها.

إنّ فتنَ الدنيا تدعو النفسَ إلىٰ الهلَع والخوفِ ومحبةِ البقاء؛ فمن مَلَك بُضْعَ امرأةٍ ولم يدخُل بها أو كاد أن يدخل؛ فإن قلبه متعلقٌ بالرجوع إليها، وقد يدخل الشيطانُ إليه من هذا المدخل فيصدُّه عن طاعة الله، وكذلك من بدأ بناءَ بيت ولم يُتمَّه، أو له ناقةٌ ينتظر ولادها.

والأمورُ المهمّة لا ينبغي أن تُفوَّض إلا إلىٰ حازمٍ، فارغ البال لها؛ فإنّ من تَعَلّقَ قلبه بأمرٍ من هذه الأمور ربما ضَعُفَت عزيمتُه، فلا يذهب للقتال بشجاعة وإقدام، والقلبُ إذا تفرق همُّه ضعفت الجوارحُ عن العمل، وإذا اجتمعت الهموم وصارت همًّا واحدًا قَوِيَ القلبُ.

لقد أراد يُوشَع عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يُشَكّل جيشه من أفضل المحاربين وأشجعهم من بني إسرئيل، أراد جيشًا

رايتُه: إما النصر أو الشهادة، أراد جيشًا من الكوماندوز والمغاوير ورجال العمليات الخاصّة، جيشًا لا يَرجِع إلا منتصرًا، قد وهب حياتَه وباع نفسَه في سبيل إعلاءِ كلمة الله.

ملحمة في بيت المقدس:

وانطلق يُوشَع عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومعه الشجعان الأبطال من صفوة بني إسرائيل ممن تعلقت قلوبهم بربهم، وقَوِيت عزائمُهم في طلب الآخرة، وسار بهم نحو بيت المقدس.

ودارت رَحَىٰ معركةٍ لم يشهد التاريخُ مثلَها، واشتدّ القتال، وأظهر المسلمون من بني إسرائيل شجاعةً وصبرًا لا نظير له، وكان النصرُ حليفَ المؤمنين في هذه المعركة المصيريّة، وكَادَ المسلمون أَنْ يفتحوها، لكنّ الشمس قد أوشكت علىٰ الغروب، وخَشِي يُوشَع عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يدخل الليلُ فيتوقف القتال، وهنا لجأ إلىٰ

ربه وتضرّع بين يديه، ونظر إلىٰ الشمس بقلب قد ملأه الإيمانُ واليقين، فقال لها: أنتِ مأمورةٌ، وأنا مأمورٌ، بحرمتي عليكِ إلا ركدْتِ ساعةً من النهار، اللهم احبسْها عليَّ ساعةً، حتىٰ تقضِيَ بيني وبينهم.

أيتها الشمسُ لا تغربي!

وهنا حدثت المعجزةُ التي لم تحدث من قبلُ ولا بعدُ لأحدٍ من البشر، لقد توقفت الشمس في مكانها عن الحركة، ومازالت رَحَىٰ الحرب تدور، ودارت الدائرة علىٰ الكافرين، ونصر الله عباده المؤمنين.

قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الشمسَ لم تُحبَس علىٰ بشرٍ إلا ليُوشَعَ لياليَ سار إلىٰ بيت المقدسِ**».

فانظر إلىٰ ثقته عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في ربِّه سبحانه وتعالىٰ، ما استعظم علىٰ ربه شيئًا، بل دعاه صادقًا، وتضرع إليه واثقًا، فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

كن واثقًا بربك:

وهكذا المؤمن إذا دعا ربَّه صادقًا، أجاب الله دعاءَه، وأحدث لأجله الكراماتِ، وخوارقَ العاداتِ، ونجاه من الشدائد والكرباتِ، كن بربِّك واثقًا، فعلىٰ قدر ثقتك يكون قربُه منك، وإجابتُه لك.

فيا من أتعبه المرضُ، واشتد به البلاءُ، تضرع إلىٰ ربِّك، وسلْه أن يشفيَك، وأن يكشفَ عنك الضرَّ، وكن واثقًا بربِّك.

ويا من ضاق صدرُه من كثرة المعاصي، وأرهقه ذنبٌ أقضَّ مضجعَه، وأسهره ليلَه، قم وادعُ ربَّك، وتذلَّل بين يديه، وكن واثقًا بربِّك.

ويا من حُرِم الذريةَ، وتاقت نفسُه إلىٰ الولد، ودِّع همومَك وقم بين يدي ربِّك، وسَلْهُ ذريةً طيبةً، وكن واثقًا بربِّك.

ويا من اشتكىٰ من شدة الفقرِ، وضيقِ الرزق، وشظَفِ العيش، وهمِّ الدَيْن، قُم وتذلَّل بين يدي ربِّك، وسلْه رزقًا واسعًا، واستعن بربِّك علىٰ قضاء دَينِك، وكن واثقًا.

ويا من أصابته الكروبُ، وتزاحمت علىٰ قلبِه الهمومُ، وضاقت عليه الأرضُ بما رَحُبَت، وعظُم به البلاءُ، قُم وتذلَّل بين يدي ربِّك، وسلْه تفريجًا لكَربك، وذهابًا لهمِّك، وتعوَّذ به من حزنك، وكن واثقًا بربِّك.

مهما كانت حاجتُك، ومهما كان طلبُك، ومهما كانت محنتُك، ومهما كانت كُربتُك، إذا لجأت إلىٰ ربِّك، واثقًا بقدرتِه وحكمتِه، وأنه لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وتقربتَ إليه بحسنِ طاعتِك إيَّاه، وأخذت بأسباب إجابةِ الدعاء، فكن علىٰ يقينٍ أنه سيجيب دعاءَك لو كان في هذا الخير لك.

❑ المصادر:

«صحيح البخاري» (٣١٢٤)، «صحيح مسلم» (١٧٤٧)، «مسند أحمد» (٢/ ٣٢٥) بسند صحيح، «فتح الباري» (٦/ ٢٢١)، «البداية والنهاية» (٢/ ١٢٤ - ١٢٧، ٢٣٢).

٢

حديقة الموت

الشجاعةُ والإقدامُ، والصبرُ وقوةُ الإيمانِ، تلك هي بطولة قصتنا. في أصعب المواقف، وأحلك الظروف، وشدة البأس، لم يتردد هؤلاء الأبطال الشجعان في بذل أرواحهم لإعلاء كلمة الله، فثبتوا ولم يَهِنوا أو يضعُفوا، وأقدَموا ولم يتراجعوا.

فاقرأ معي بداية القصة:

في يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، من السنة الحادية عشرة للهجرة، ٨ يونيو سنة ٦٣٢ من ميلاد المسيح، توفي سيد البشر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد أن نشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية، ولم يبق بيت فيها إلا وبلَغَته رسالة الله، وقد دخل أكثر أهل الجزيرة في دين الله تعالىٰ، راغبين في عفو ربهم، طامعين في رحمته.

وأصاب أصحابَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزعٌ شديد،

وحُزن عظيم بموته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل لم يصدّق بعضهم وفاتَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتىٰ قام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: والله ما مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليبعثنّه الله فليقطعنّ أيدي رجالٍ وأرجلهم.

۞ ومات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وجاء أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودخل علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُغطّىٰ، فكشف عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، طِبت حيًّا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقُك الله الموتتين أبدا، ثم خرج.

فلما رأىٰ عمرًا قال له: أيها الحالف؛ علىٰ رسلك، فجلس عمر، وبدأ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكلام، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: ألا من كان يعبد محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنّ محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، ثم قرأ قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا

رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فذهب رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ لقاء ربّه، وحمل الرايةَ من خلفه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واجتمعت كلمةُ المسلمين عليه خليفةً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما إن بدأ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيامَ حُكمه إلا وبدأ خطر عظيم يهدّد دولة الإسلام الناشئة، ويُؤذِنُ بزوالها إن لم يتم تدارك هذا الأمر في بداياته.

المرتدون:

لقد ارتدّ كثيرٌ من العرب عن دين الإسلام، وانقلبوا علىٰ أعقابهم بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستفحل أمر هؤلاء المرتدين وعَظُم شرُّهم، حتىٰ خَشِي الصديق علىٰ المسلمين منهم، وكان رأس هؤلاء المرتدين وأكثرهم قوة، واكثرهم عددًا مُسَيلمة الكذّاب، الذي ظهر

باليمامة أيام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنّ أمره عَظُم، وفتنتَه استشرت في الناس بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتبعه كثير من العرب إما حَمِيّةً، وإما جهلًا.

وأدرك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لابد من وَأدِ فتنةِ مسيلمةَ في بداياتها قبل أن يَعُمّ ضررُها، ويَعظُم شرها.

جيش الإسلام يطأ أرض اليمامة:

بعث أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عكرمة بن أبي جهل لقتال مسيلمة الكذاب باليمامة، وأرسل خلفه شُرَحبيل ابن حَسنة، تعجل عِكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم ينتظر مجيء شُرَحبيل، فاشتبك مع مسيلمة، فانهزم ولم يَثبُت لكثرة جيش مسيلمة، ثم لحق به شُرَحبيل فانضمَّ إليه.

وكان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أرسل سيف الله المسلول خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقتال مسيلمة، وسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في طريقه إلىٰ اليمامة لا يمر بأحد من المرتدين إلا قاتلهم ونكّل بهم، وأرسل الصديق سَرِيّةً خلف خالد

لتكون رِدءًا له من ورائه.

وسمع مسيلمةُ بقدوم خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مدَدًا لشُرَحبيل وعِكرمة فاستنفر أهل اليمامة، وحثهم علىٰ قتال المسلمين، وحشد جيشًا عظيمًا لم تَرَ اليمامةُ مثلَه قبلَه، ثم سار بجيشه يملأ قلبَه الزهوُ والكبر، فعسكر بجيشه في مكان يقال له: عقرباء، في طرف اليمامة، وجعل علىٰ مجنبتيْ جيشِه المحكم بن الطفيل، والرجال بن عنفوة.

قدم خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ اليمامة، والتقىٰ بجيش عكرمة وشُرَحبيل، وكان هو قائد الجيش وأمير المسلمين بأمر أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فجعل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ المقدمة شُرَحبيل بن حسنة وعلىٰ المجنبتين زيد بن الخطاب وأبا حذيفة بن عتبة، وراية المهاجرين مع سالم مولىٰ أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابتِ بن قيس بن شمّاس، والعرب علىٰ راياتها.

وفي ليلة المعركة المرتقبة وبينما تستكشف مقدمة جيش المسلمين الأجواء رأوا نحوا من أربعين فارسًا، عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأرٍ له في بني تميم وبني عامر وهو راجع إلىٰ قومه، فأخذوهم وأتوا بهم إلىٰ خالد، وسألهم عن خبرهم فاعتذروا إليه فلم يصدقهم، فقال لهم: ماذا تقولون يا بني حنيفة؟

قالوا: نقول: منا نبي، ومنكم نبي.

فقتلهم إلا مجاعة بن مرارة، استبقاه مقيّدًا عنده، لِما بلغه عنه من علمِه بالحرب والمكيدة، وكان سيدًا في بني حنيفة شريفًا مطاعًا.

۞ بداية المعركة:

وجاءت اللحظة الفارقة، وحانت ساعةُ القتال، وتَواجَه جيشُ الإيمان وجيش الكفر، وبدأ مسيلمةُ يحثّ قومَه علىٰ القتال، ويملأ قلوبَهم بالكفر والنّفاق، فقال لهم: اليومُ يومُ الغيرة، اليومَ إن هُزمتم تستردف النساء

سبيّات، ويُنكَحن غير حظيّات، فقاتلوا عن أحسابِكم، وامنعوا نساءَكم.

واشتبك الفريقان، وكانت الغلبة في أول المعركة للمسلمين، ولكنّ الأعراب انهزموا حتىٰ دخل بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد، وهمّوا بقتل زوجتهِ أمّ تميم، واشتد القتال، وقاتلت بنو حنيفة قتالًا شديدًا لم يُعهَد مثلُه.

۞ ثبات أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وكان في هذه الملحمة عدد كبير من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستبسل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في القتال، وظهر منهم ثبات عظيم، وسطّر التاريخُ بطولاتهم المجيدة، وجعلوا رضي الله عنهم يتواصَون فيما بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة «البقرة» بَطَل السحرُ اليوم.

وكان من هؤلاء الشجعان الأبطال ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلكم الصحابي الجليل الذي بشره النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة قبل وفاته، وكان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حامل لواء الأنصار، فلقد تَحنَّط رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وتَكفَّن، وحَفَر لقدميه في الأرض إلىٰ أنصاف ساقيه، وقاتل ببسالة وشجاعة منقطعة النظير، ولم يزل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَفتِك بالمشركين حتىٰ رَوَت الأرضَ دماؤه الطاهرة.

وقال زيد بن الخطاب أخو الفاروق عمر: أيها الناس، عُضُّوا علىٰ أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وامضوا قُدُمًا، والله لا أتكلم حتىٰ يهزمهم الله أو ألقىٰ الله فأكلّمه بحجتي، ولم يزل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثابتًا يقاتل المشركين بشجاعة وضراوة حتىٰ قُتِل شهيدا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

۞ بطولات أهل القرآن:

وقال المهاجرون لسالم مولىٰ أبي حذيفة حاملِ لوائهم: أتخشىٰ أن نؤتىٰ من قبلك؟

فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا.

وكان سالم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أقرإِ أصحاب النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعلمِهم بكتاب الله تعالىٰ، حتىٰ لقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استقرؤوا القرآن من أربعة...**»: وذكر ذلك الشجاع المغوار سالم مولىٰ أبي حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن، زيّنوا القرآن بالفِعال، وحمل علىٰ المشركين بشجاعة حتىٰ أحدث فيهم خسائرَ عظيمةً، وأصيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أما القائد الشجاع والبطل المغوار خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقد ثَبُت ثبات الجبال، وقاتل ببسالة، حتىٰ لقد دخل في وسط المشركين فجاوزهم وسار بحيال مسيلمة، وجعل يترقب أن يصل إليه ليقتله، لكنّ المرتدين كانوا قد تجمعوا حوله بكثرة، فلم يستطع أن يصل إليه، فرجع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ثم وثب بين الصفين، ودعا إلىٰ البراز، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد. ثم نادىٰ بشعار المسلمين يومئذ: يا محمداه، وجعل لا يَبرُز له أحد إلا قتله.

◈ ودارت معركة لم يشهد المسلمون مثلها، وصبر أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المعركة صبرا لم يُعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلىٰ نحور عدوهم حتىٰ فتح الله عليهم، وولىٰ المشركون الأدبار، وأتبعَهم المسلمون قتلًا وأسرًا.

◈ ثم احتمىٰ بنو حنيفة بحديقة لهم سميت حديقةَ الموت، وأغلقوها عليهم، وظنوا أنهم في حماية بها من المسلمين، وأن المسلمين لن يستطيعوا دخولها.

۞ الأسد الشجاع البراء بن مالك:

◈ أحاط الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالحديقة الحصينة، وهم لا يدرون ماذا يفعلون، وهنا ظهر الأسد الشجاع والبطل المقدام الذي قلّ أن تجد له نظيرًا في تاريخ البشر، إنه البطل الشجاع البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لما رأىٰ البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن المشركين قد تحصنوا بالحديقة** فكّر في طريقة ليتمكن المسلمين من اختراق

هذه الجدران، فقال: يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة.

يا الله!

كيف ذلك؟

هل هذا شيء يصدقه العقل؟

إنها الشجاعة والإقدام، والبذل والفداء، احتمل المسلمون البراء فوق الحجف ورفعوها بالرماح حتىٰ ألقوه من فوق السور، وهناك كان العدو في انتظاره، وقد تكاثروا عند الباب لحمايته من أي هجوم للمسلمين، فلم يزل البراء يقاتلهم عند الباب حتىٰ فتحه، ودخل المسلمون كالسيل الجارف إلىٰ الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدين من أهل اليمامة، حتىٰ خلصوا إلىٰ مسيلمة لعنه الله، وإذا هو واقف في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق، وهو مزبد متساند، لا يعقل من الغيظ.

وكان وحشيّ بن حرب قاتلُ حمزةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد خرج في جيش المسلمين ليس له همّ إلا قتل مسيلمة، لعله بذلك يُكَفّر عن قتله لحمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورأىٰ وحشي مسيلمةَ فاغتنم هذه الفرصة لقتل هذا الكذّاب الأشر رأس الكفر في بلاده، فتقدم إليه وحشي فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وهنا ينقضّ الشجاع المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة علىٰ مسيلمة فيضربه بالسيف فيسقط صريعًا.

فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة من المشركين قريبًا من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: واحد وعشرون ألفًا، وقُتِل من المسلمين ستمائة، وقيل: خمسمائة.

❑ **المصادر:**

«تاريخ الطبري» (٣/ ٢٨٩)، «البداية والنهاية» (٩/ ٤٦٦).

٣

المهمة المستحيلة

امتثال أمرُ الله تعالىٰ وأمرُ رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصعب الأوقات، وأحلك الظروف، هذه بطولة قصتنا.

لم يتردد هذا البطل في تنفيذ أمر الله تعالىٰ وأمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما دام الأمر جاء من الله ومن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا مجال للمناقشة، ولا سبيل إلىٰ التقهقر، بل هو الحزمُ والإقدام، وبذلُ الغالي والنّفيس، والتضحيةُ بالمال والنفس وكل ما في هذه الدنيا لأجل الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إن كثيرًا منا قد فرّط في طاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصار كثير منا يسألُ قبل تنفيذ الأمر: هل هذا الأمر للوجوب أو الاستحباب؟ فإذا كان مستحبًّا وسنةً هان علينا! حتىٰ لقد صدق الذي قال: «صار من السنة ترك السنة»، والمسلم الحقُّ يمتثل أمرَ ربِّه وأمرَ

رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحرص علىٰ طاعتهما، حتىٰ ولو كان الأمر للاستحباب، فما دام الأمر جاء عن الله وعن رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يسعُنا إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا...

۞ لو أدركنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي مدينةِ الكوفة كان يجلس الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين بعضِ أهل الكوفة، فقال له شاب من شباب الكوفة: يا أبا عبد الله! رأيتُم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبتِموه؟

قال: نعم يا ابن أخي.

قال: فكيف كنتم تصنعون؟

قال: والله لقد كنا نجهَد. كنا نتعب.

قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشِي علىٰ الأرضِ، ولجعلناه علىٰ أعناقِنا، لو أدركْتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلْتُ معه وأبلَيت.

وكأن هذا الشاب يُعرِّض بأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم لم يقوموا بتوقيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقَّ التوقير، وقصَّروا في الدفاع عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وظنَّ هذا الشاب أنه لو كان في زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفعل وفعَل!

فقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت كنت تفعل ذلك؟» هل تحسب الأمر كان سهلا؟ ومن يدريك أنك لو كنت معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآمنت؟ ألم يرَ أبو جهل رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ألم يرَ المعجزات الباهرة الدَّالة علىٰ نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ومع هذا ظلَّ علىٰ كفرِه وعنادِه؟

ثم ذكر له حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقفًا من حياتِه مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما لاقاه هو والصحابة رضي الله عنهم من الجَهد الشديد، والكرب العظيم.

۞ فذكر له ذلك الموقفَ:

في شوال سنة خمس من الهجرة جاءتِ الجموعُ

الغفيرةُ، وتداعَىٰ الأحزابُ من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، وجيَّشَ اليهودُ والمشركون الجيوشَ الجرّارةَ، جمعوا عشرة آلافِ مقاتلٍ بأحدثِ التسليحِ الحربيَّ آنذاك، لقد خرجتْ قريشٌ وقبائلُ العربِ من غطَفان وكِنانة وانضمَّ إليهم اليهودُ بكيدِهم ومكرِهم، أقبلتْ جيوشُ الكفرِ تريدُ استئصالَ شأفةِ المسلمينَ.

أحاطت بنا الأهوال:

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١].

﴿جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ لقد أحدقوا بهم من كلِّ جانبٍ، وأحاطُوا بهم إحاطَةَ الهالةِ بالقمرِ، والسوارِ بالمِعْصَمِ، ولم يعُد ثمَّةَ مهربٌ ولا مفزعٌ ولا

ملجأٌ إلا إلىٰ الله ربِّ العبادِ، ولم يكنْ جيشُ الإسلامِ في هذه الغزوةِ يزيدُ علىٰ ثلاثةِ آلافِ مقاتلٍ.

رأىٰ المسلمون جيشَ الأحزابِ العرمرمِ فمُلئت قلوبُهم خوفًا وهلعًا، ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وشخصتْ، وعن مقرِّها خرجتْ، ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ هل رأيتَ قلبًا خرجَ عن موضِعه، ووصل الحنجرة؟ لقد مُلِئَتْ قلوبُ الصحابةِ رعبًا، وماجتْ واضطربتْ، حتىٰ كأنَّ القلب صارَ عند الحنجرةِ من شدَّةِ التقلُّبِ.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ في هذا الموقفِ العصيبِ ظهرَ كلٌّ علىٰ حقيقتِه، كُشِفَ الغطاءُ، في ساحة البلاء، وزاد المؤمنون ثباتًا وإيمانًا، وزاد المنافقون خوَرًا وخذلانًا.

لقد أتىٰ علىٰ المسلمين في هذه المعركة من الخوفِ ما لمْ يرَوْه من قبلُ أبدا، وليت الأمرَ اقتصرَ علىٰ الخوف الشديد، بل كانوا رضي الله عنهم في جوعٍ شديدٍ، وبردٍ

شديدٍ، مع الخوف الشديد.

وفي ليلة من هذه الليالي المرعبة كان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أخذتهم ريحٌ شديدةٌ، وبرد شديد، ما أتت عليهم ليلةٌ أشدّ ريحًا منها، في أصوات ريحِها أمثالُ الصواعق، وكانت ليلةً مظلمةً، لا يكاد أحدهم يرىٰ إصبعه من شدة الظلامِ. وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب أمامهم، ويهود بني قريظة من خلفهم.

وجعل المنافقون يستأذنون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: بيوتنا عورة، وما هي بعورة، وإنما يريدون التسلل والانهزام، فما يستأذنه أحد منهم إلا أَذِن له.

من يأتيني بخبر القوم:

حينها قام النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من الليل يصلي،** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبَه أمرٌ فزع إلىٰ الصلاة.

فصلىٰ، ثم رجع إلىٰ أصحابه، فقال لهم: «**ألا رجلٌ**

يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» مَن رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، يشترط له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يرجع، أدخله الله الجنة.

فسكت القوم، فلم يجب أحد! أين الذين يريدون الجنان؟ ها هي الجنة أمامهم تُعرَض بثمنٍ بخسٍ! لا والله، ما هو بثمنٍ بخسٍ، بل هو أغلَىٰ الأثمانِ، إن طريقَ الجنة محفوف بالمخاطر، مليء بالأشواك، يحتاج إلىٰ قلب جسور، وهمة تعانق السماء، وتقتحم الأهوال في سبيل الوصول إلىٰ هذه السلعة الغالية.

ثم رجعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فصلىٰ من الليل،** ثم فرغَ من صلاتِه والتفت إلىٰ أصحابِه، فقال: **«ألا رجل يأتيني بخبرِ القوم، جعلَه الله معي يوم القيامة؟»** مَن رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجِعُ، يشترِط له رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجعَة، أسأل الله أن يكون رفيقِي في الجنة.

فسكت القومُ، فلم يُجِبْه أحدٌ.

قم يا حذيفة:

فلمَّا لم يقُم أحد دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي بعض الروايات: أنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتىٰ حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو جاثٍ علىٰ ركبتيه، فقال: «**من هذا؟**» قال حذيفة: فتقاصرت بالأرض كراهية أن أقوم.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حذيفة؟**».

فقلت: بلىٰ يا رسول الله.

قال: «**قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم، انظر ما يفعلون، ولا تَذعَرهُم عليَّ**».

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقومَ.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنا من أشد الرجال فزعًا، وأشدِّهم قُرًّا - يعني بردًا -.

إذا جاء الأمر من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعنا وأطعنا، تهون الصعاب، ويحلو المر، ونقتحم الأهوال، ونبذل أرواحَنا في سبيل ذلك.

وهل هناك كلام بعد أمرِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الرأس والعين.

◈ ولماذا يختار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاصة دون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا؟ **إنما كان هذا لكفاءته، ونباهتِه، وذكائه، كما سترىٰ.**

۞ حمَّام دافئ في برد قارص:

قام حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والبرد يكادُ يقتلُه.

وفي بعض الروايات أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا له، فقال: «**اللهم احفظْه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته**».

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فوالله ما خلقَ الله عَزَّوَجَلَّ فزَعًا ولا قُرًّا أجدُه في جوفي إلا خرج من جوفي.

انطلقَ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عند النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بردٍ شديدٍ، فلمَّا بدأ السيرَ جعل كأنّما يمشي في حمَّام دافئ حار. لقد أبدل الله خوفَه طمأنينةً، وبرده دفئًا، ويسر له أمرَه، وذلَّل له الصعاب.

وهذه عاقبة كلِّ من أطاعَ الله عَزَّوَجَلَّ ورسولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الخير العظيم إنما هو في اتباعِ أمرِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما قال ربنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالحياة الطيبة، والعيش الرغيد إنما هو في اتباع أمرِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ذكاء ونباهة:

سار حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعناية ربِّه تحرسُه، فتخفّىٰ ثم دخل وسط معسكرِ المشركين، وإذ ريح شديدة قد أتت عليهم، فأطفأت نيرانَهم، وأكفأَت قدورهم، وهزّت خيمَهم فكادت تطير مع الريح العاصف.

نظرَ حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإذا هو بأبي سفيان بن حرب قائدِ جيشِ المشركين في عُصبَةٍ حوله وقد تفرَّق الجنود عنه لِما حلَّ بهم من الكرب، فدخل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجلسَ بينهم، وظنَّ أبو سفيان أنَّه قد دخلَ بينهم من ليس منهم، فقال لأصحابِه: ليأخذ كل رجل منكم بيدِ جليسه، فينظر من جليسُه.

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأخذت بيد الرجل الذي عن يميني، فقلت: من أنت؟

قال: أنا فلان بن فلان.

قال: وأخذت بيد الرجل الذي عن يساري، فقلت: من أنت؟

قال: أنا فلان بن فلان.

فانظر إلىٰ ذكائه ونباهتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لم يكن مغفلًا، بل كان عبقريًّا فذًّا، ولهذا اختاره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه المهمة العظيمة.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم قام أبو سفيان فخطب في الناس، وقال: يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقَام، لقد هلك الكُرَاع، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكرَه، ولقِينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قِدْرٌ، ولا تقوم لنا نارٌ، ولا يستمسك لنا بناءٌ، فارتحلوا فإني مُرتحِلٌ.

۞ لا تذعَرْهم عليَّ:

ثم قام أبو سفيان إلىٰ جملِه فجلس عليه، ثم ضربَه فقام، فرآه حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرآها فرصةً ذهبية لقتل أبي سفيان، وبهذا يتخبط جيش المشركين ويضعُف، فوضع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سهمًا في كبد القوسِ ليرمي به أبا سفيان، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم ذكرت قولَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تذعَرْهم عليَّ**»، قال: ولو رميتُه لأصبتُه.

لقد جاء الأمر من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة واضحًا، فمهمةُ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استكشافية استطلاعية

لأخبار المشركين،دون قتلِ أحدٍ إلا لضرورةٍ شديدةٍ.

رجعَ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أتمَّ مهمتَه علىٰ خير وجهٍ، ولا يزال يمشي في مثل الحمام، لا يشعر بشيء من برد هذه الأيام القارص، وقد حفظَه ربه بعينه التي لا تنام.

دخل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المدينة فأتىٰ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قائم يصلي، فأومأ إليه أن: أدن، فدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أومأ إليه أن: أدن، فدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأسبلَ عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طرف الثوب الذي كان يصلي فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا فرغ من صلاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ابنَ اليمان، اقعد، ما الخبر؟

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! تفرَّق الناس عن أبي سفيان، فلم يبقَ إلا في عُصبَة يوقد النارَ، قد صبَّ الله عليه من البردِ مثلَ الذي صبَّ علينا، ولكنّا نرجو من الله ما لا يرجو.

وهنا بدأ البرد يرجع إلىٰ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **مرةً ثانيةً،** وألبسه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه العباءة التي

كانت عليه ويصلي بها، ثم دخل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نومٍ عميق، فلم يستيقظ إلا علىٰ صوتِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يوقظه لصلاة الصبح، وهو يقول له: «**قُم يا نومان**».

❑ **المصادر:**

«صحيح مسلم» (١٧٨٨)، «مسند أحمد» (٥/ ٣٩٢) بسند فيه انقطاع، «مستخرج أبي عوانة» (٦٨٤٢) بسند فيه مقال، «مستدرك الحاكم» (٣/ ٣١)، بسند فيه مقال.

٤

صادع بالحق في وجه الطغيان

الصدعُ بالحق في وجه الجبابرة الطغاة، والتضحية والبذل في سبيل إعلاء كلمة الله، هذه بطولة قصتنا. إنه رجل بأمَّة، جهر بالحق ولم يكتمه، مع أنه كان في بيئة تموج بالكفر وتعجُّ بالضلال، وليس له مَعين ولا ناصر من أهل الأرض، لكن لأجل الجنة نبذل الأرواح، ونقتحم الأهوال، ونحارب الطغيان، في سبيل الله وإعلاء كلمة الله نقدم أرواحنا علىٰ أكفِّنا.

فاسمع قصةَ ذلك البطل الشجاع الصادع بالحق، فقد عزَّ مثلُه في هذا الزمان، مع حاجتنا المُلِحّة لبطلٍ مثلِه:

وفد من الرسل:

في مدينة أنطاكيَّة [١] كان هناك ملِكٌ يعبد الأصنامَ من

(١) وهي مدينة تقع علىٰ الضفة اليسرىٰ لنهر العاصي الذي ينبع من لبنان ويمر بالأراضي السورية ليصب في البحر المتوسط، وهي تابعة لتركيا اليوم.

دون الله، كان هو وقومُه علىٰ الضلالِ والكفرِ، **فأرسل الله إليهم رسُلًا كرامًا** يبلّغونهم دعوةَ الحقِّ، ويدعونهم إلىٰ توحيدِ ربِّ الخلقِ.

أرسَل الله إليهم رسولَيْن، فدعَوْهم إلىٰ التوحيد، فعاندَ أصحابُ القرية الرسولَيْن وكذبوهما، فأرسلَ الله رسولًا ثالثًا مددًا لهما وعونًا، لعلَّ قلوبَ القومِ تلين.

جاء الرسلُ الكرامُ إلىٰ أهلِ القرية، فقالوا لهم برفقٍ ولطفٍ: إنّا إليكم مرسلون من ربِّكم الذي خلقكم، نأمرُكم بعبادته وحده لا شريك لهم.

فأجابَهم أهلُ القرية بكبرٍ وزُهُوٍّ: ما أنتم إلا بشرٌ مثلُنا، فكيف أوحَىٰ الله إليكم وأنتم بشرٌ ونحن بشرٌ، ولماذا لا يوحي ربكم إلينا مثلكم؟

ثم إنكم لو كنتم رسلًا حقًّا لكنتم ملائكةً!

هكذا رفضوا دعوة الحق، وكفروا بالله رب العالمين، لحججٍ واهيةٍ، وأسبابٍ باطلةٍ.

دعوة بحكمة ورفق:

فقال الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ: ربنا يعلمُ إنَّا إليكم لمرسلون، ولو كنَّا كَذَبةً علىٰ ربِّنا لانتقم منا أشدَّ الانتقام، ولكنه سيُعزُّنا وينصرُنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبةُ الدار.

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدَۢاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

ثم قالوا لهم: واعلموا أنه ليس علينا إلا البلاغُ المبين، نحن نُبلِّغُكم ما أُرسِلنا به إليكم من الحقِّ، فإذا أطعتُم كانت لكم السعادةُ في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبةَ ذلك من الهلاكِ والخسارةِ في الدنيا والآخرة.

عناد واستكبار:

قال أهل القرية: إنا تطيَّرنا بكم وبمقدِمِكم علينا

أيها الرسلُ، فلم نرَ من وجوهِكم خيرًا في عَيشِنا، ومنذ رأيناكم والمصائبُ تحلُّ بنا، بل إن ما يصيبُنا من الشرِّ إنما هو بسببِكم أنتم، إن أمثالَكم ما دخلوا قريةً إلا عُذِّب أهلُها.

ثم قالوا لهم مهدِّدين متوعِّدين: لئن لم تنتهوا أيها الرسلُ عن دعوتِكم الباطلة هذه لنرجُمنَّكم بالحجارةِ، ولتسمَعُنَّ منا شتمًا وسبابًا. وليمسنَّكم منا عذابٌ أليمٌ، وعقوبةٌ شديدةٌ.

فردَّ عليهم الرسلُ الحلماءُ العقلاءُ: إنّ طائرَكم معكم، وهو مردودٌ عليكم. واعلموا يا قومَنا أنه ما يصيبُكم من خيرٍ وشرٍّ فإنما هو بتقديرِ ربِّ العالمين سبحانه، الخيرُ فضلٌ منه وتكرُّمٌ، والشرُّ الذي يصيبُكم إنما هو بذنوبِكم، أفلا تعقلون الحقَّ، وتعرفون الهُدىٰ من الضلال؟

ثم قالوا لهم موبِّخين: أمِن أجلِ أنّا ذكرناكم وأمرناكم

بتوحيدِ الله وإخلاصِ العبادة له، قابلتُمونا بهذا الكلامِ، وتوعَّدتمونا وهددتّمونا؟ إنكم قومٌ مسرفون، بعيدون عن الهُدىٰ، غارقون في ضلالاتِ الهوىٰ.

رجل مؤمن:

كان في القريةِ رجلٌ اسمه «حبيبٌ»، لم يكن من وجَهاء القوم وكبارِهم، لم يكن غنيًّا مُترَفًا، بل كان مسكينًا يعمَلُ نجارًا، أو يصنع الأحذية ويُصلحها، أو يعمَلُ في نسجِ الثياب، علىٰ اختلاف في الروايات.

نعم، كان فقيرَ المال، لكنه غنيُّ القلبِ، قد امتلأ قلبُه بحبِّ الله، واستنارَ وجهه بنورِ الإيمان.

وكان حبيبٌ قد اعتزلَ الناسَ، فما عاد بينهم من يعبُد الله، ولا يهتدِي بهُدَىٰ الله، قد انشغلَ الناسُ بدنياهم، وأشركوا بالله الواحدِ، فعبدوا من دونه أوثانًا، فتركَهم ومكثَ في غارٍ يتعبَّدُ لربِّه هناك، لعلَّه ينجو من فتنِ الدنيا، ويُختَم له بخاتمة السعادةِ.

وبينما حبيبٌ علىٰ حالِه تلك، يتعبَّدُ لربه، ويعملَ عملًا يقتاتُ منه، **جاء الخبرُ**: لقد جاء ثلاثُة رجالٍ إلىٰ القرية، يزعمون أنهم رسلٌ من عند الله، ويدعون الناسَ إلىٰ عبادةِ الله، وقد قابلَهم الناس بالتكذيبِ، والسخريةِ، والتهديدِ، وما آمن بدعوتِهم أحدٌ.

وهنا هرولَ حبيبٌ مسرعًا، وجاء من أقصىٰ المدينةِ يعدو كالريحِ، لنصرةِ هؤلاء المرسلين ونجدتِهم، جاء ليصدعَ بكلمةِ الحقِّ في وجه الطغيان، جاء لينصحَ قومَه باتباعِ الحقِّ، ويُحذّرَهم مَغبَّة الكفرِ والعصيانِ.

۞ موعظة بليغة:

وبدأ حبيبٌ ذلك المؤمنُ الصالحُ يَعِظ قومَه ويُذكِّرُهم بالله، ويجهر بكلمةِ الحقِّ، لا يخاف في ربِّه لومةَ لائم، ولا بطشةَ ظالمٍ، ولا عقوبةَ غاشمٍ.

فقال لهم: يا قومُ! اتبعوا هؤلاءِ الرسل الكرام.

ثم أقبل علىٰ الرّسلِ، فقال لهم: أتطلبون علىٰ ما

جئتُم به أجرًا؟

قالوا: لا، ما أجرُنا إلا علىٰ الله.

فأقبلَ علىٰ قومِه، فقال لهم: إنَّ هؤلاء الرسل الكرام لا يسألونكم أجرًا علىٰ نُصحِهم لكم، إنما يبتغون الأجرَ من ربِّ العالمين، أفلا تتبِعونهم؟ فما أتوكم يريدون مُلكًا، ولا مالًا، ولا جاهًا.

ثم إنهم قد اهتدوا بهُدَىٰ الله، وأتوا بنورٍ من الله، يُبلِّغونَكم عن الله، ويدعونكم إلىٰ توحيدِ الله، أفلا تسيرون علىٰ دربِهم وطريقِهم؟

وهنا قال له قومُه: هل أنت علىٰ دينِهم؟!

فقال: وما لي لا أعبد الله الذي خلقني وفطَرني؟ ولماذا لا أُخلِصُ العبادةَ لله الذي خلقني وحدَه لا شريك له، وإليه نرجِع جميعًا يوم المعادِ، فيُجازينا علىٰ أعمالِنا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

أأتخذ من دونه آلهةً؟ معاذ الله أن أفعل ذلك. هذه

الآلهة التي تعبدونها من دونِه سبحانه لا تملِكُ من الأمرِ شيئًا، فإن الله لو أرادَني بسوءٍ، فلا كاشفَ له إلا هو، وهذه الأصنامُ لا تملِكُ دفعَ ذلك ولا منعَه، ولا إنقاذي مما أنا فيه.

إني لفي ضلالٍ مبينٍ إن اتخذْتُ هذه آلهةً أعبُدُها من دون الله رب العالمين.

ثم جهرَ بالحقِّ، وصدعَ بكلمةِ التوحيد، فقال لهم بقلبٍ قد ملأه الإيمانُ: إني آمنتُ بربِّكم الذي كفرتُم به، فاسمعوا قولي، واشهدوا بذلك.

ويا أيها الرسلُ: اسمعوا قولي أنتم أيضًا، لتشهدُوا لي بما أقول عند ربِّي يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، اشهدوا أني قد آمنتُ بربِّكم واتبعتُكم.

أعظم الشهداء:

ومع هذه الموعظةِ البليغةِ من هذا العبدِ الصالحِ، ومع دعوةِ الرسلِ الحكماءِ ما زادَ القومُ إلا بُعدًا عن الله،

وإعراضًا عن دعوةِ الله.

وليتهم اكتَفَوا بالإعراضِ والتهديدِ، بل تجمَّعوا حولَ هذا المؤمنِ الشجاعِ، فجعلوا يرجُمونه بالحجارةِ، ويدوسونه بأرجُلِهم، ووثبوا عليه وثبةَ رجلٍ واحدٍ فقتلوه، ولم يكن له أحدٌ يمنَعُ عنه رحمه الله، ومع شجاعتِه ما استطاعَ دفعَهم؛ فالكثرةُ تغلِبُ الشجاعةَ.

لقد مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وهو يُردِّد:** اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون.

۞ بماذا ضحيتَ:

صدَع بكلمةِ الحقِّ، وجهر بها في وجه الكفرِ والطغيانِ، وضحَّىٰ بنفسِه لإعلاءِ كلمة الله ونشرِها بين قومه، فماذا فعلنا نحن لنشرِ دينِ الله؟

هل ضحَّينَا ببعض وقتِنا لإعلاء كلمة الله، ونشرِها في الآفاق؟

هل ضحَّينا بشهواتِنا وملذَّاتنا لأجلِ الله؟

هل بلَّغنا كلمةَ الله كما أمرَنا الله؟

هل نشرنا سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المسلمين؟

لم يكُن هذا المؤمنُ الصالحُ عالِمًا كبيرًا، لم يكُن يحملُ دكتوراة في الشريعةِ الإسلامية، لم يكن يحفظُ كثيرًا من كلامِ الله، لكنه يحمِلُ قلبًا مفعمًا بحبِّ الله، وحبِّ دينِ الله، يبذلُ الغالي والنفيسَ لإعلاءِ كلمة الله.

مات المؤمن الصالح، وفاضَت روحُه الطاهرةُ إلىٰ الله، ورُوِيتِ الأرضُ من دمِه الشريف، فجاءته البشارةُ من رب العالمين: ادخُلِ الجنة.

۞ يا ليت قومي يعلمون:

دخل المؤمنُ الصالح الجنة، وتنقَّلَ بين نعيمِها، ورأىٰ من جمالِها وحُسنِها، فنسِي محنتَه التي كانت في الدنيا، لقد ذهبَت كلُّ همومِ الدنيا وأحزانِها في غياهِب النسيان لمَّا رأىٰ نعيمَ الجنة وتقلَّب بين مباهجِها.

وهنا تذكَّر المؤمنُ الصالحُ قومَه، فخالطَ الحزنُ

قلبَه، لم يحزنْ علىٰ ما فعلوه به من التعذيبِ والتنكيل، لم يتذكَّر ضرباتِهم الموجِعة، ولا كلماتِهمُ النابية، بل كلُّ ما حزِنَ لأجلِه أنهم كفروا بدعوةِ الله، فحرموا أنفسَهم من جنة الله، فقال بحزنٍ وأسَفٍ: يا ليت قومي يعلمون بما غفرَ لي ربي وجعلني من المكرمين.

ما أعظمَه من رجلٍ! ما أنبلَ خُلقَه! وما أزكىٰ نفسَه! نصح قومَه في حياتِه، وبعد مماتِه، تمنَّىٰ لهم الخير مع ما رآه منهم من العنادِ والتكذيبِ والتعذيبِ، لم يكن حانقًا عليهم، بل رحيمًا رفيقًا محبًّا.

أمّا قومُه فلقد حلَّ عليهم عذابُ ربِّهم، ونزلَ بهم بطشُه وعقابُه، فجاءَت صيحةٌ من السماءِ فماتوا جميعًا، وخسروا دنياهم وأخراهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ

رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ [يس: ١٣ - ٢٦].

❑ المصادر:

«جامع البيان» للطبري (١٩/ ٤١٢)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٥/ ١٣)، «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٦/ ٥٦٨).

٥

أتردّ على رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره

كان جليبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **رجلًا من الأنصارِ**، لم تحفلِ المصادر بنسبِه، فليس هو من نسبٍ عريقٍ، ولا هو ذو وجاهةٍ وحسبٍ، لقد كان مسكينًا فقيرًا، لا يملك من حطام الدنيا شيئًا كثيرًا، لم يكن جميلَ المنظر، بل كانت فيه دمامة، وكان قصيرًا.

لَقِيَه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا فقال له: «**يا جليبيب! ألا نزوِّجُك؟**».

نظر جليبيبٌ في حالِه، وفكر في أمرِه، فقال: إذًا تجدني كاسدًا يا رسول الله.

إن أكثرَ الناس يُنكحون لنسبِهم، أو جاهِهم، أو مالِهم، أو جمالِهم، ولم يكن جليبيب يملك أيَّ واحدة

من هذه، فمن هذه التي ترضىٰ به زوجًا؟

فرد عليه رسول الله ﷺ قائلًا: «غير أنك عند الله لستَ بكاسدٍ»[١].

ما كان جليبيبُ يملكُ إلا إيمانًا ملأ قلبَه، ومحبةً لربه عز وجل ولرسولِه ﷺ، وكفاه بذلك والله شرفًا وفخرًا، وإذا كان رسول الله ﷺ يذهب بنفسِه ليخطبَ لجليبيب فما ذلك إلا لمكانتِه رضي الله عنه في قلبِ رسول الله ﷺ.

وكان أصحابُ النَّبِيّ ﷺ إذا كانَ لأحدِهم أيِّمٌ[٢] لم يزوِّجْها حتىٰ يعلمَ: هل لرسولِ الله ﷺ فيها حاجةٌ أم لا؟

---

(١) أخرج أبو يعلى (٣٣٤٣)، عن أنس، قال: كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: جليبيب، في وجهه دمامة فعرض عليه رسول الله ﷺ التزويج فقال: إذاً تجدني كاسدًا، فقال: «**غير أنك عند الله لست بكاسد**»، وفي الإسناد بعضُ المقال.

(٢) **الأيِّم**: البنت بلا زوج.

زوجني ابنتك:

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ذات يوم لرجل من الأنصار:** «**يا فلانُ زوجني ابنَتَك**».

تهلَّل الرجل، واستنارَ وجهُه، وقال وقد غمرَه الفرحُ وملأت قلبَه السعادةُ: «نعم، ونُعمَةُ عينٍ». نكرمُك بها كرامةً، ونَسُرُّ عينَك مسرةً. وأي شرف أعظم من أن أكون صهرك يا رسول الله؟

فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني لستُ لنفسِي أريدُها**».

قال الرجل وقد ظهر علىٰ وجهه الحزنُ والقلقُ: فلِمَن يا رسولَ الله؟

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لجليبيبٍ**».

حيرة وتردد:

لم يكن يجول بعقلِ ذلك الرجل الأنصاري يومًا أن يزوجَ ابنتَه لجليبيب، وقد جاء ابنتَه خطَّابٌ كثيرون

فرفضَهم، أبعد ذلك يزوجها لجليبيب؟ لكنّه كرِه أن يردَّ أمرَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: «يا رسول الله! حتىٰ أستأمِرَ أمَّها». أمهلْني يا رسولَ الله حتىٰ أشاورَ أمَّها.

◈ **أتىٰ الرجل زوجَته، فقال لها:** إن رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطُب ابنتَك.

تهللت الزوجة واستبشرت، وقالت: نعم، ونُعمَةُ عينٍ زوِّجْ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال لها: إنه ليس لنفسِه يُريدُها.

قالت وقد ملأ قلبَها القلقُ: فلِمن؟

قال: لجليبيبٍ.

وكأنما صاعقةٌ نزلت علىٰ المرأة، لقد رفعَها إلىٰ السماء ثم قذفَها إلىٰ الأرضِ، بل في أعماقِها.

فقالت بغضبٍ وطيشٍ: حلقىٰ، ألجليبيب؟ إنِيه،

لا، لعمرُ الله لا أزوِّجُ جليبيبًا، لاها الله إذًا، ما وجدَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا جليبيبًا وقد منعناها من فلان وفلان؟[1].

أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الرأس والعين:

◈ **كانت الابنةُ في خِدرها وسِترِها تسمعُ ما يدورُ بين أبيها وأمِّها**، وفهِمت أنَّ أحدًا ما قد جاء لخطبتِها، وأن والديها مترددان بين القبولِ والرفضِ.

خرج أبوها وأرد أن يذهب ليأتي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فأوقفتْه، وقالت له**: من خطبني إليكما؟

قال: رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالت: أفتردُّون علىٰ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) «**حلقىٰ**»: حلقَك الله حلقًا، لكن اشتهر بلا تنوين. «**إنيه**»: لفظةٌ تستعملها العرب في الإنكار، يقول القائل: جاء زيد، فتقول أنت: أزيدٌ؟ إنيه، كأنك استبعدت مجيئَه. «لاها الله إذا»: معناه في كلامهم: لا والله، يجعلون الهاء مكان الواو، ومعناه لا والله لا يكون ذا. ولذلك فالصواب أن يُقالَ: لا هآ الله ذا.

أمرَه؟ ادفعوني إلىٰ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه لن يُضَيِّعَني.

كيف نعترضُ علىٰ أمرِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لن يأمرَنا بأمرٍ إلا وهو خيرٌ لنا في ديننا ودنيانَا، إنه نبيُّ الرحمة، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

لم تبحثِ الفتاةُ عن الأمرِ، هل هو للوجوب أو الاستحباب؟ فلا كلامَ يعلو فوقَ كلامِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمرُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الرأسِ والعين، إذا جاء الأمرُ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما علينا إلا أن نقولَ: سمعنا وأطعنا.

فكأنها جلَّتْ عن أبوَيها، وكشفَت عنهما همًّا كبيرًا، **فقالا لها:** صدقتِ.

◈ **فذهب أبوها إلىٰ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقال:** شأنُك بها يا رسولَ الله، فزوجها جليبيبًا، إن كنتَ

قد رضِيتَه فقد رضِيناه.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإني قد رضيتُه، فزوَّجَها.

فيُقالُ: إنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا لها فقال: **«اللهم صُبَّ عليها الخير صبًّا صبًّا، ولا تجعلْ عيشَها كدًّا كدًّا»**.

◈ **وتعيشُ هذه المسلمة الصالحة مع زوجها في عيشٍ رغيدٍ**، قد جمعهما بيتٌ عامرٌ بالإيمان، تعرف ما لزوجِها من حقوقٍ، وتقومُ علىٰ خدمتِه، ويعرفُ زوجُها ما لها حقٍّ.

۞ إني أفقد جليبيبًا:

◈ **ويومًا ما يخرجُ رسول الله لغزاةٍ، ويخرج معه جليبيب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وتكون الغلبةُ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينصرُه الله علىٰ عدوِّه، ويستشهد بعض المسلمين، ويُجرحُ آخرون،

وبدأ كل واحدٍ يبحث عن قريبه أو حبيبه، ورسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألهم: «**هل تفقدون من أحد؟**[١]».

قال الصحابة: نعم، فلانًا، وفلانًا، وفلانًا.

فقال لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **للمرة الثانية:** «**هل تفقدون من أحدٍ؟**».

قالوا: نعم، فلانًا، وفلانًا، وفلانًا.

فقال لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **للمرة الثالثة:** «**هل تفقدون من أحدٍ؟**».

قالوا: لا. لقد وجد كل قريبٍ قريبَه، وما يفقد أحدٌ أحدًا.

◈ **فقال لهم رسولُ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لكني أفقدُ**

---

(١) قال العلماء: هذا الاستفهام ليس مقصوده استعلام كونهم فقدوا أحدًا ممن يعزّ عليهم فَقده، إذ ذاك كان معلومًا له بالمشاهدة، وإنما مقصوده التَّنويه والتَّفخيم بمن لم يحفلوا به ولا التفتوا إليه لكونه كان غامضًا في الناس، ولكون كل واحدٍ منهم أصيب بقريبه أو حبيبه فكان مشغولًا بمصابه لم يتفرَّغ منه إلىٰ غيره. «المفهم» (٦/ ٣٩٠).

جليبيبًا، فاطلبوه».

بحث الصحابة عن جليبيبٍ في القتلىٰ، فوجدوه إلىٰ جنبِ سبعةٍ من المشركين قتلىٰ، فأخبروا رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فأتىٰ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فوقف عليه، فقال: «**قتل سبعةً، ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه**»، فوضعه علىٰ ساعِدَيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ليس له إلا ساعدا النَّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فحُفر له ووُضع في قبره.

❑ **أمَّا زوجة جليبيب الأرملة**، فقد صبرت واحتسبت، وفوضت أمرَها إلىٰ خالقِها، وكافأها الله علىٰ طاعتِها أمرَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خير الجزاء في الدنيا والآخرة، حتىٰ قال أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**فلقد رأيتُها وإنها لمِن أنفَقِ ثيِّبٍ في المدينة**».

❑ **المصادر:**

«صحيح مسلم» (٢٤٧٢)، «مسند أحمد» (٣/ ١٣٦، ٤/ ٤٢٢، ٤٢٥)، «صحيح ابن حبان» (٤٠٣٥، ٤٠٥٩) بسند صحيح.

٦

روحي لك الفداء

الدفاع عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والغيرة لعرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحمية والغضب لأجله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه بطولة قصتنا. غَضِب هؤلاء الأبطالُ واشتدّ غضبهم علىٰ من سبَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أنه لم يكن رجلًا عاديًّا، بل كان زعيمًا من زعماء المشركين، والوقوفُ أمامه يعني تعريض النفس للهلاك، لكنّ هذا لم يَثنِ عزيمة هؤلاء الأبطال، فلْتخرج الروحُ رخيصةً في سبيل الذّبِّ عن عرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدفاع عنه بأمي وأمي وروحي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه

وعند الله في ذاكَ الجزاءُ

أتهجُوه ولستَ له بكُفءٍ

فشرُّكما لخيرِكما الفداءُ

هـجـوتَ مـبـارَكًـا بـرًّا حنيفًا
رسـولَ الـلـه شـيـمـتُـه الـوفـاءُ

فـإن أبـي ووالـدتـي وعِـرضـي
لـعـرضِ مـحـمـدٍ مـنـكـم وِقـاءُ

يوم الفرقان:

في سنة اثنين من الهجرة النبوية، وبينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مدينته المباركة، بلغه أنَّ أبا سفيان قد خرج في قافلةٍ تجاريةٍ لقريش إلىٰ بلاد الشام، وها هم في طريق العودة الآن.

وفي هذه القافلة أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلًا يحرسونها.

وحين خرج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من ديارهم في مكة مهاجرين إلىٰ المدينة تركوا أموالهم وكل ما يملكونه، وفرّوا بدينهم وأنفسهم إلىٰ الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

◈ **جمع رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أصحابه، وقال لهم: «هذه عِير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلَكموها»**. لعل الله أن يُعَوّضهم بهذه القافلة عمَّا أخذه منهم المشركون ظلمًا وعدوانًا.

ولم يكن الأمر بالخروج إلزاميًّا لكل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه قافلة تجارية صغيرة يكفي للاستيلاء عليها عدد قليل من المسلمين، فخرج معه من تيسر له الخروج، واجتمع من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا من خيار المسلمين.

وتشاء حكمة الله عَزَّوَجَلَّ **أن يحدث اللقاء الذي لم يخطر علىٰ قلب أحد من أصحاب النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتخرج قريش بحدِّها وحديدها تحادّ الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحدث ملحمة لم تشهد جزيرة العرب مثلها قبلَها.

◈ **وفي وادي بدر خلَّد التاريخ بطولاتٍ** لم يُرَ

مثلُها لخير جنودٍ علىٰ وجه الأرض يومئذٍ، سطَّر القرآن بطولاتهم، ورُويت الأرضُ من دمائهم الطاهرة، وأنزل الله عليهم نصرَه، وأيّدهم بجنده من الملائكة.

❑ **ومن هذه البطولات ما حكاه البطل الشجاع المُبَشَّر بالجنة عبد الرحمن بن عوف** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذلك أنه بينما يجول ويصول ويَفتِك بالمشركين ويُنزِل بهم أشنعَ الهزائم نظر عن يمينه وشمالِه، قال: فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثةٍ أسنانُهما، تمنيت أن أكون بين أضلعَ منهما [١]، فكأني لم آمن بمكانهما. وفي روايةٍ: فأشفقت أن يُؤتَىٰ الناسُ من ناحيتي لكوني بين غلامين حَدثين.

۞ قلب شجاع في جسد نحيل:

لقد رأىٰ حولَه شابَّين لم يتجاوزَا العشرين عامًا، لو نظرتَ إليهما لحسبتهما ضعافًا، فليسوا من أصحاب

---

(١) أضلع: أقوىٰ.

الأجسام الضخمة، والعضلات الفتيّة، لكنّ قلوبَهم قد مُلِئَت شجاعةً نادرةً، وقوةً وثباتًا.

فلا تنخدعْ بالمنظر، فإن الله قال في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فقد ترىٰ الرجلَ تظنّه شجاعًا قويَّ الجسم، لكنه أوتِي قلبًا خاويًا من الشجاعة، مليئًا بالجُبن والضّعف.

وقد ذكروا أنّ الشاعر الجاهلي (تأبط شرًّا) لقِي ذات يوم رجلًا من ثقيف يُكَنّىٰ بأبي وهب، وكان رجلًا أحمقَ وعليه حلةٌ جميلة، فقال أبو وهب لتأبط شرا: بِمَ تَغلِب الرجالَ يا ثابت، وأنت كما أرىٰ دميمٌ ضئيلٌ؟

قال ثابت: أغلبهم باسمي، إنما أقول ساعة ألقىٰ الرجل: أنا تأبط شرًّا، فينخلعُ قلبه حتىٰ أنال منه ما أردت.

فقال الثقفي: أبهذا فقط؟!

قال: ليس إلا.

قال: فهل لك أن تبيعني اسمك؟

قال: نعم، ولكن ما الثمن؟

قال: هذه حلةٌ جميلة مع كنيتي.

قال: أفعل، ففعل.

وعندها قال تأبط شرًا: لك اسمي ولي اسمك، وأَخَذ الحلةَ، ثم انصرف تأبط شرا وهو يقول مخاطبا زوجة الثقفي:

ألا هل أتىٰ الحسناءَ أن حلَيلها

تأبط شرًا واكتنيتُ أبا وهبٍ

فهبْه تسمَّىٰ اسمي وسمَّانيَ اسمَه

فأين له صبرِي علىٰ معظمِ الخَطبِ

وأين له بأسٌ كبأسي ونجدتي

وأين له في كل فادحةٍ قلبي

هل تعرفُ أبا جهل:

قال عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فغمزني أحدهما فقال:

يا عم! هل تعرفُ أبا جهل؟

تعجّب عبدُ الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟

فقال الشاب وقد أخذته الحَمِيّة، وتملَّكَه الغضب: أُخبِرت أنه يسبّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي نفسي بيده، لئن رأيتُه لا يفارقُ سَوادي سوادَه حتىٰ يموتَ الأعجَلُ منا[1].

أيسبُّ أبو جهلٍ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويمشي علىٰ الأرضِ ءامِنًا؟

لا والله، لا يحدثُ هذا أبدًا ولا يكون، لئن رأته عيناي فوالله لن أتركه إلا قاتلًا أو مقتولًا.

روحُنا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفداءُ.

لقد مُلِئ قلبُ هذا الشاب حبًّا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنّ روحَه في سبيل الذودِ عن عرضِ

(١) **السَّواد**: الشخص. **الأعجل**: الأقرب أجلًا.

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزهَق عندَه رخيصةً، أيُسَبُّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفينا عينٌ تطرف؟

فكيف لو جاء هذا الشاب البطل فرأىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَبُّ ويُهانُ في بلاد الإسلام من قومٍ ينتسبون إلىٰ الإسلام زورًا وكذبًا؟

كيف لو جاء فرأىٰ أصحابَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَبُّون في بلاد الإسلام دون عقوبةٍ تردَعُ هذا الأفَّاكَ الأثيم؟

لقد قام هذا الشاب البطل فاستلَّ سيفَه، وحملَ كفنَه فداءً لعرضِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والآن وقد مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفاتنَا شرفُ صحبتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أتعجزُ أنت أيها المسلم عن حمل سنةِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتمسكِ بها، ونشرِها في الآفاق؟

قال عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فغمزني الآخر، فقال لي

سرًّا من صاحبِه: يا عم! هل تعرفُ أبا جهل؟

فقال عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟

قال الشاب وقد أخذته الحَمِيّة: أُخبِرت أنه يسبُّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتىٰ يموتَ الأعجلُ منا.

هذا صاحبُكما:

قال عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما سرَّني أنّي بين رجلين مكانهما.

لقد رأىٰ منهما شجاعةً وإقدامًا لا نظير لهما، رأىٰ قلوبًا أشجعَ من قلبِ أسدٍ، وأثبتَ من جبل راسخٍ، قلوبًا عُمِّرت بالإيمانِ، وأُشرِبت حبَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قلوبًا لا تعرف الخوفَ والجبنَ.

ومضىٰ وقتٌ يسيرٌ وإذا بعبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرىٰ أبا جهلٍ يجولُ ويصولُ، وقد حمِي الوطيس،

واشتدت ضراوةُ المعركة، فنظر عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الشابين، وقال لهما: ألا تريان؟ هذا صاحبُكُما الذي تسألان عنه.

وما إن فرغَ عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من كلامه إلّا وقد انطلق الشابان البطلان كالسهم إلىٰ أبي جهل، فابتدراه بسيفيهما، فشدّا عليه مثل الصّقرين فضرباه حتىٰ أرديا صريعًا يتخبّط في دمائه.

هل تعرف من هذان البطلان؟

إنهما معاذ بن الحارث بن رفاعة الأنصاري، المعروف بمعاذِ بن عفراء، وعفراءُ أمُّه، كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أول الأنصار إسلامًا علىٰ صغر سنة.

والثاني: معاذ بن عمرو بن الجموح الأنصاري، كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين إلىٰ الإسلام.

ولا تحسب أن قتلَ أبي جهل لعنه الله كان بالأمرِ اليسير، إنّه رأسُ الكفرِ يومئذٍ، وقائدُ جيشِ المشركين،

وحولَه كتائب من شجعانِ المشركين، لكن أين شجاعتهم وهذا الأسد الضاري، والشجاعُ المقدام، والبطلُ الهُمَام معاذ بن عمرو بن الجموح.

أبو الحكَم لا يُخلَصُ إليه:

اسمع لمعاذ بن عمرو وهو يحكي ما حدثَ له يوم بدر وهو يقتل أبا جهل:

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت القومَ يومَ بدرٍ وأبو جهل في مثل الحرَجَة [١]، وهم يقولون: أبو الحكَم لا يُخلَصُ إليه. قال: فلما سمعتُها جَعَلتُه من شأني، فصمدت نحوه [٢]، فلمّا أمكَنَني حملْتُ عليه، فضربتُه ضربةً أطنَّتْ قدمَه [٣] بنصفِ ساقِه، فو الله ما شبَّهتُها حين طاحَت إلا بالنواةِ تطِيحُ من تحت مِرضَخَة النوىٰ [٤] حين يُضرَب بها.

(١) **الحرجة**: الشجر الملتف، والمعنىٰ أنَّ المشركين قد أحاطوا بأبي جهلٍ والتفوا حولَه.

(٢) **صمدت**: قصدت.

(٣) **أطنت قدمه**: أطارتها.

(٤) **المِرْضَخة**: الَّتِي يدق بهَا النَّوَىٰ للعلف.

قال: وضربني ابنُه عِكرمةُ علىٰ عاتِقِي، فطرَح يدِي، فتعلَّقَت بجلدةٍ من جنبي، وأجهضَني القتالُ عنه [١].

❁ قلب شجاع:

فلقد قاتلْتُ عامَّةَ يومي، وإني لأسحبُها خَلفِي - يعني يدَه المقطوعة -، فلما آذتْني وضعْتُ عليها قدمِي، ثم تمطَّيْتُ بها عليها حتىٰ طرحتُها.

فانظر إلىٰ شجاعتِهِ وفروسيّتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما أشجعَه وأثبتَ قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: ثم مرَّ بأبي جهلٍ مُعَوِّذ بن عفراء، فضربَه حتىٰ أثبتَه، فتركَه وبه رمَق. وقاتل مُعَوِّذ حتىٰ قُتِل.

◈ **وبعد انتهاء المعركة**، ونصرِ الله تعالىٰ لعباده المؤمنين ورسوله الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصحابِه ويقول لهم: «**من ينظرُ ما فعلَ أبو جهلٍ؟**».

---

(١) **أجهضني**: غلبني وشغلني.

قال عبد الله بن مسعود: أنا.

◈ وانطلق عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوجده يتخبّط في دمائه، قد أثخنته الجِراح، وقد بردَ جسمُه، وسقط علىٰ الأرض، وحانت ساعة الموت، ولم يبقَ إلا أنفاس معدودة، فأخذ عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلِحيته، فقال: أخزاك الله يا عدوَّ الله، أنت أبا جهل. يعني: أنت مقتولٌ يا أبا جهل.

قال: وبِمَ أخزاني؟

وهل فوق رجل قتله قومُه؟ فلو غيرُ أكَّار قتلني؟[1]

لقد ارتقيتَ يا رويعِيَّ الغنمِ مرتقىً صعبًا.

۞ رأس أبي جهل بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فقطع عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأسَ أبي جهل، ثم جاء به

---

(١) **أكَّار**: زراع وفلاح، وكان أهل مكة يستخِفّون بالزراعة، وكان الذين قتلوه من الأنصار أهلَ الزراعة. فكأنه يقول: لو كان الذي قتلني غيرُ زرَّاع لكان أحبَ إلي وأعظمَ لشأني، ولم يكن عليَّ عار في قتلكم إياي.

إلىٰ رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: هذا رأس عدو الله أبي جهل.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**والله الذي لا إله إلا هو؟**».

فقال عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: والله الذي لا إله إلا هو.

فأخذ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بيدِه، ثم انطلق حتىٰ أتاه، فقام عنده، فقال: الحمد لله الذي أعزَّ الإسلام وأهلَه.

الحمد لله الذي أعزَّ الإسلام وأهلَه.

الحمد لله الذي أعزَّ الإسلام وأهلَه.

◈ **وقد اختلفت الروايات في الذي قتلَ أبا جهلٍ،** لكن عندما جَمَع بعضُ العلماء بين الروايات، رأوا أن يكون مُعَاذ بن عَفراء شدَّ علىٰ أبي جهل مع معاذِ بن عمرو فجرحاه وقَطَع معاذ بن عمرو ساقَه، ثم مرَّه به ذلك مُعوِّذ فضربَه هو الآخر، ثم جاءه ابن مسعودٍ وبه رمَق، فحزَّ رأسه.

❑ المصادر:

صحيح البخاري (٣١٤١، ٣٩٦٢)، ومسلم (١٧٥٢، ١٨٠٠)، وابن هشام (١/ ٦٣٥) بسند حسن[١]، «فتح الباري» (٧/ ٢٩٤).

(١) قال شيخنا في رواية ابن إسحاق التي ذكرها ابن هشام: السند ظاهره الحسن، إن سلم أمر ثور، ولكن ما ورد في الصحيح في شأن مجيء معاذ ومعوذ إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لا يجعلنا نطمئن إلىٰ هذه القصة.

٧

القرار الشجاع

الصدق مع الله، وعدم اليأس من رحمة الله، ومجاهدة النفس، والإصرار علىٰ التوبة مع عِظَم الذنب وقلة الْمَعين، هذه بطولة قصتنا. رجل كان يعيش في ظلماتِ المعصية، في بلدٍ تَمُوج بالضّلال، قد قل فيها الصالحون، وكثُر المجرمون، مع عِظَم ذنوبِه وكثرتها، وإسرافه علىٰ نفسه، لم ييأس من رحمةِ الله، بل أقبل علىٰ ربّه بقلبٍ صادق، وجاهد كثيرًا ليقوم من عثرته، بعزيمةٍ تفل الحديد، وتُفَتّت الصّخر، لا يعرف اليأسَ ولا القُنوط، قد ملأ قلبَه الشوقُ إلىٰ رحمة الله.

فاسمع قصة ذلك البطل المجاهد، الذي جاهد نفسَه ليخرج بها من ظُلمة المعصية إلىٰ نور الطّاعة، فما أحوجنا لمثل ذلك في زمانٍ كَثُرت فيه المعاصي والفتن:

غارق في بحر الذنوب:

في الأزمان الغابرة في مدينةٍ من مُدُن بني إسرائيل كان الناس غارقين في المعاصي والشّهوات، قد أغرتهم الدنيا بملذاتها، وخدعتهم بزينتها، حتىٰ ما عاد أحد يعرف معروفًا ولا يُنكِر منكرًا، وصار الناس يتقاتلون فيما بينهم علىٰ متاع الدنيا الفانيةِ، يأكل القويُّ الضعيفَ، ولا يجد الضعيفُ من ينصره.

في هذه المدينة كان يعيش بطل هذه القصة.

لقد كان هذا البطلُ يومَها من أبعد الناس عن الله، فَعَل الكبائرَ المهلكةَ، ووقع في آثامٍ عظيمةٍ، وأسرف علىٰ نفسه بارتكاب المعاصي كثيرًا. لقد عاش حياةَ اللهو والترف، وكأنه نَسِي أنه يومًا عن هذه الدنيا راحل.

كان هذا الرجل قد وقع في ذنبٍ كبير جدًا، لقد قَتَل تسعةً وتسعين إنسانًا، قتلهم بدمٍ باردٍ، قتلهم ظلمًا وعدوانًا.

يا الله! قتل تسعةً وتسعين إنسانًا!

يا له من ذنب عظيم!

في الحديثِ الصحيحِ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلُّ ذنبٍ عسىٰ الله أن يغفِرَه، إلا من مات مشركًا، أو مؤمن قتلَ مؤمنًا متعمدًا**»(١).

ومن قبلُ قال الله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

هذا فيمن قتل مؤمنًا واحدًا، فما بالُك بمن قتل تسعةً وتسعين نفسًا؟

القرار الشجاع:

وفي يومٍ من الأيام جلس هذا الرجلُ وتفكّر في

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٩٩)، بسند حسن. وقال شيخنا: الأسانيد غير قوية، وغير مطمئنة، مع غرابة المتن فيما يتعلق بالرجل يقتل مؤمنًا.

حاله: يا الله! ما هذا الذي فعلتُه؟ إلىٰ متىٰ سأظلُّ علىٰ هذه الحال؟ أليس الموتُ مصيرَنا المحتوم؟ كيف ألقاك يا ربي وأنا أحمل هذه الأوزار؟

يل تُرىٰ هل سيقبلُني ربي إذا تبتُ إليه، مع هذه الآثام الكبيرة التي فعلتها؟

لقد ظلّ يفكّر كثيرًا، إنّه يرجو رحمة ربّه سبحانه، لكنّ الذنبَ الذي فعلَه ليس ذنبًا هينًا، فلقد كتبَ اللهُ علىٰ بني إسرائيل وعلىٰ كل بني آدم أنه من قتل نفسًا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا، فكيف بمن قتل تسعةً وتسعين نفسًا؟

لكنّ هذا الرجلَ البطلَ أخذ القرارَ الشجاعَ، لابد لي من تركِ هذا الذنب مهما كانت الظروفُ، لابد لي من البحث عن حل لهذه المعصية التي أتعبتني، وملأت حياتي جحيمًا.

أين أعلمُ أهلِ الأرض:

وبدأ الرجل يبحث عمَّن يستطيع الجواب عن هذا السؤال، فظل يمشي بين الناس، وينتقل من مدينةٍ لأخرىٰ، **يسأل الناس: أين أعلمُ أهلِ الأرض؟** أريد عالمًا كبيرًا، أريد أعلمَ الناس بالدين.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

لكن في هذا الزمان كان قد اختلط علىٰ الناس العالِمُ بشبيهِ العالِمِ، ظنّ كثير من الناس أن من تزيَّا بزيّ العلماء، وقرأ شيئًا في الدين، وتعبَّد لربه فصام وصلَّىٰ وأكثر من ذكر الله؛ صار عالمًا.

لقد اختلط الأمرُ علىٰ كثير من الناس، وصاروا يسألون في أمور دينهم أيَّ أحد، والتبست عليهم الأمورُ؛ فلم يميّزوا بين العالِمِ والعابد والعالم المخادع، واستوىٰ عندهم الجميعُ مادام اللباسُ واحدًا، ونسَوْا أن فضل العالم علىٰ العابد لا يدانيه فضلٌ، فهو كفضل

القمر ليلةَ البدر علىٰ سائر الكواكب؛ فإنَّ العلم يُنِير للناس في سيرهم، ويأخذُ بأيدهم إلىٰ ربِّهم.

وظل الرّجل يسألُ: دلّوني علىٰ أعلم أهل الأرض؟

أشباه العلماء:

وهنا أوقفه رجل، وقال له: إن هناك صَومعةً فيها رجل عابد لله، يظلّ ليله قائمًا بين يدي ربِّه باكيًا خاشعًا، ويصبح نهارَه صائمًا، اذهب إليه ستجد عنده جوابًا لسؤالك.

أعدَّ الرجلُ عُدَّته، وتهيَّأَ للذَّهَاب إلىٰ ذلك العابد، ذهب إليه يرجو الله أن يكتبَه في عِداد التائبين، يرجو أن يركب سفينة النجاة فيكونَ من الفائزين، داعيًا الله أن يمنَّ عليه بالهداية والتوبة النصوح؛ فهو سبحانه ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ١٤٢].

دخل التائبُ البطلُ علىٰ الراهب العابد في صومعته، وكأنِّي به قد رأىٰ رجلًا خاشعًا خاضعًا، يرجو عنده

الشفاء والدواء، قد جاءه خائفًا وجلًا يخشىٰ أنْ يسألَه فيقولَ له: ليس لك توبة.

لكنَّه أخذ قرارًا لا رجعةَ فيه أبدًا، فقال له بجرأةٍ وثباتٍ وقلبُه يخفِق: إنّي قتلتُ تسعةً وتسعين نفسًا، فهل تجد لي توبة؟

فَزِع الرّاهب وخاف. وكأني به قد احمرَّت وجنتاه، وانتفخت أوداجه من شدّةِ الهلع، وارتعدت فرائصُه، وتخيّل بشاعةَ الذنب؛ **فصاح به قائلًا**: بعد قتلِ تسعةٍ وتسعين نفسًا تريد توبةً؟

لقد قتلتَ تسعةً وتسعين نفسًا فليست لك توبة!

كيف ذلك؟! تقتلُ مائة نفسٍ إلا واحدةً، وتريد التوبة؟!

بلا ريبٍ ليست لك توبة، هذا لا يحتاج إلىٰ سؤالٍ، ولا إلىٰ عالمٍ.

هكذا ظنَّ العابد المسكينُ، وغَفَلَ عن سعة رحمة

الله التي وسعت كلَّ شيء.

سمعَ الرجلُ كلامَ الراهبِ، ولم تُصَدّقْ أذناه ما سَمِع، وتقلَّصت شفتاه، وشخَصتْ عيناه، وطاش عقلُه من رأسه، وتحجَّر قلبُه، وكان وَقعُ الكلام عليه كالصّاعقةِ المحرِقةِ. فاستلَّ سيفَه، وهوىٰ به علىٰ رأسِ الراهب فأرداه قتيلًا، وأسقطه صريعًا، وأكمل به تمام المائة. ورجع والخيبةُ علىٰ جِباه، والحزن لا يفارقُ قلبَه، والدموع تملأ عينيه.

وقتلَ الراهبَ جهلُه وسوءُ فهمِه وحمقُه - غفر الله له ورحمه - وصارَ مثلًا وعبرةً علىٰ فظاعةِ الجهل وقبحه وشرِّ عاقبته.

وكما قيل: لسانُ الجاهل مفتاح حتفِه - يعني موتِه.

رجع الرجلُ والحزن يكاد يقتله، والهمّ والغمّ لا يفارِقه، لا يدري كيف فعل هذا الذي فعلَه؟ لقد زاد الطين بلًّا، وزادت المشكلة تعقيدًا.

تفاؤل وإصرار:

لكنه لم ييأس، ولم يملَّ، إن الأمل ما يزالُ يملأ قلبه، إنه يرجو رحمة ربِّه، ويطمع في عفوه ورضاه.

أليس الله سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل؟

أليس ربُّنا الذي قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾؟

وعاد التائب البطلُ مرةً أخرىٰ يسأل الناس من حوله: دلوني علىٰ أعلم أهل الأرض؟

وبدأ يفتّش ويبحث هنا وهناك حتىٰ دلَّه بعضُ الناس علىٰ عالم رباني قد فتحَ الله عليه من المعارف، وأفاض عليه بعلمٍ سديدٍ، وفقهٍ رشيدٍ.

وانطلق التائب إلىٰ العالِم وقلبُه يرجُف شوقًا إلىٰ رحمةِ الله، والدموع تنهمر من عينيه ندمًا علىٰ ما

اقترفت يداه، ورأىٰ التائبُ البطلُ العالمَ الرباني فسأله بقلبٍ منكسر: إنّي قتلت مائة نفس، فهل تجد لي توبةً؟

العالم الرباني:

فقال العالمُ الذي تنطقُ الحكمة علىٰ لسانه: لئن قلتُ لكَ: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يتوبُ علىٰ مَن تابَ لقد كذبتُ؛ ومن يحولُ بينك وبين التوبةِ؟

الله أكبر! لقد جاء الفرجُ؛ وانكشفت الغمّةُ، وزال البأسُ ولله الحمد.

إن اللهَ يتوب علىٰ من تاب، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورىٰ: ٢٥].

مهما فعل العبدُ من ذنوبٍ وآثامٍ فرحمةُ الرحمن واسعة، ومن أقبل علىٰ الله صادقًا قَبِلَه الله. ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

فَرِحَ الرجلُ، واستنارَ وجهُهُ، وزاد تفاؤله. نعم، فالعلمُ حياةٌ للقلوب المظلمةِ من عمىٰ الجهل، ونورٌ للأبصار في طرق الظلام، وشفاء للصّدور من عليل الذّنوب، ودليل المتحيّرين، ولولا العلماءُ لصار الناس كالبهائم، لا تعرف طريقًا، ولا تهتدي سبيلًا.

كان سؤالُ الرجل: هل لي توبة؟

لكنّ العالم لذكائه وحسنِ فَهمه دلَّه كيف يتوبُ، ونصحَه بنصيحةٍ ذهبيةٍ، فقال له: اخرج من القريةِ الخبيثةِ التي أنت فيها، وائت قرية كذا وكذا؛ فإنَّ بها أناسًا يعبدون الله، فاعبدِ اللهَ معهم؛ لعلَّ الله يتوبُ عليك، ولا ترجعْ إلىٰ أرضك؛ فإنَّها أرضُ سوءٍ.

كانت توبةُ هذا الرجلِ أنْ يترك أَرضَ السوءِ، ويدعَ هؤلاء الناس الذين سكتوا عنه فلم يعظوه، وكاد يهلك معهم في الهاوية، لولا العنايةُ الإلهيةُ، والمنحةُ الربانيةُ.

بداية الطريق:

إنّ طريقَ التوبة الصحيحة يبدأ بهَجر رفقةِ السوءِ، وتركِ أرض السوء، وإبدالِ هذا برفقة الصلاح، وأرض الصلاح، وكان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مثلُ الجليسِ الصالحِ، والجليسِ السوءِ، كحاملِ المسكِ، ونافخِ الكِيرِ، فحاملُ المسكِ إما أن يُحذِيَك، وإما أن تبتاعَ منه، وإما أن تجدَ منه ريحًا طيبةً، ونافخُ الكِيرِ إما أن يحرِقَ ثيابَك، وإما أن تجدَ ريحًا خبيثةً**»[(١)].

إنَّك إذا صَحِبت هؤلاء الطيبين لابد أن تربح من صحبَتهم علمًا وأدبًا وخلقًا وتُقًىٰ وخشيةً لله سبحانه، علىٰ خلافِ صحبة أهل السوء أعاذنا الله من صحبتهم، بل من رؤيتهم.

اغتنم اللحظة:

ولَّىٰ التائب البطل عن أرض السوءِ مدبرًا، وهرول

(١) البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

إلىٰ أرض الصلاح مسرعًا، ما تراخَىٰ، وما توانىٰ، وما قال: غدًّا أتوب أو بعد غدٍ، وإنما ذهب من ساعتِه، يحدوه الأمل والشوق لتوبةٍ نصوحٍ.

يـا مـن يُـعِـدُّ غـدًا لـتـوبـتِـه

أعَـلَـىٰ يـقـيـنٍ مـن بـلـوغِ غَـدِ؟

الـمـرءُ فـي زلـلٍ عـلـىٰ أمـلٍ

ومـنـيَّـةُ الإنـسـانِ بـالـرَّصَـدِ

أيـامُ عـمُـرِك كـلُّـهـا عـدَدٌ

ولـعـلَّ يـومَـك آخـرُ الـعـددِ

وما زال القاتلُ التائبُ يمشي في الطريق، وشوقُه يزدادُ كلما اقترب من أرض الصلاح، إنه يطمع في رحمة الرحمن، ويسأل ربَّه أن يختم له بخاتمة السعادة، ويرجوه سبحانه أن يكتبه في التائبين الصادقين.

۞ يارب خذني إلى شاطيء الرحمات:

وبينما هو يسير حتىٰ إذا كان في منتصفِ الطريق

جاءته اللحظةُ التي لا مفر منها لكل البشر، لقد حانت ساعةُ الرحيل، وجاءت سكرةُ الموت، وشعر التائب بدنوّ الموتِ وأنَّ النهاية اقتربت، فملأ قلبَه الحزنُ، وشعر بحسرةٍ لم يشعر بمثلِها في حياتِه.

يا الله! أموتُ وما وصلتُ إلىٰ أرض الصلاح، أموتُ وما زلت أحمل ثِقَلَ هذه الذنوب التي ارتكبتها! أموت مكبّلًا بهذه المعاصي!

يارب! اقبلني عندك في التائبين.

يارب! تعلم أنني ما هاجرت إلا لأجل رضاك.

يارب! ارحمني برحمتك التي وسعت كلَّ شيء.

يارب! عبدُك الضعيفُ يرجو عفوَك، وأنت العفو الكريم.

ومازال الرجلُ يجرُّ قدمَه كأنما ينازع الموتَ ليصل لأرض الصلاح، لكن ها هي الروح تخرجُ، وبدأت قدمه تلتصق بالأرض، وما يزال الرجل يمشي زحفًا، فما مات

إلا وهو يبتعد بصدره نحو أرض الصلاح.

كرامة لتائب:

وجاءت ملائكة العذاب لِتأخُذَ روحَه، فخاصمتها ملائكة الرّحمة، كلّ منهما يقول: نحن أحقُّ به.

قالت ملائكةُ العذابِ: إنّه لم يعمل خيرًا قط!!

قالت ملائكة الرحمة: إنه جاء تائبًا مقبِلًا بقلبه.

وفي بعض الروايات:

قال إبليسُ: أنا أولىٰ به؛ إنه لم يعصني ساعةً قط.

وهنا أرسلَ الله لهم ملَكًا فاختصموا إليه، وجعلوه بينهم حَكَمًا، فقال لهم: قيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيّهما كان أدنىٰ فهو لها، فألْحِقُوه بها.

كان الرجلُ أقرب إلىٰ أرض السوء، لكنَّ الله لمَّا علِم منه صدقًا وإخلاصًا حَرَّك الأرض لأجله؛ فأوحىٰ الله إلىٰ الأرض الخبيثة التي خرجَ منها أن تباعدي،

والىٰ الأرض الصالحة التي قَصَدها أن تقرَّبي.

فقاسوا فوجدوه أدنىٰ إلىٰ الأرض التي أرادَ بشبرٍ؛ فألحَقوه بأهلها رحمه الله، وغفر الله له ذنوبَه، وكتبَه في أهل الرحمة رحمه الله ورضي عنه.

لقد حرَّك الله الأرضَ لأجل هذا التائب الشجاع، الذي لم يستسلم لمعاصيه، ولم ييأس من رحمة ربِّه، وأقبل إلىٰ ربِّه تائبًا منيبًا.

وهكذا أنجىٰ الله عبدَه التائبَ لمَّا أقبل إليه صادقًا، مخلصًا، راجيًا، مخبتًا، منيبًا. ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

❑ المصادر:

«صحيح البخاري» (٣٤٧٠)، «صحيح مسلم» (٢٧٦٦)، «مسند أحمد» (٣/ ٢٠).

٨

اللحظة الفارقة

اغتنامُ اللحظة الفارقة، حين يخالط الإيمانُ القلبَ، ويشرحُ الله صدرَ العبد لطاعته، وعدم تفويت هذا الفرصة الذهبية، هذه بطولة قصتنا.

في لحظةٍ خالط الإيمان قلبَه، وشرح الله صدرَه للإسلام، اغتنمَ هذه الفرصةَ الثمينةَ، وسارَعَ إلىٰ نُصرة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يتخاذل في الدفاع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يتوانَ في بذل روحه فداءً لإعلاء كلمة الله، يحفّزه علىٰ ذلك همةٌ عاليةٌ في طلب الجنة، ورغبة ملحة في اجتلاب مرضاة الله سبحانه.

لقد ظلّ عمرًا طويلًا علىٰ الكفر والضلال، قد خدعته الدنيا بمفاتنها، وسوَّلت له نفسه، وخدعه الشيطان، لكن في لحظةٍ شَرَح اللهُ صدرَه للإيمان، فبادر بإعلان كلمة التوحيد، وسارع إلىٰ نصرة الدين، لقد كتب له النّجاة

في آخرِ لحظاتِ عمُره، وفاز بمنازل الشهداء، وتنَعّم في روضات الجنات، مع قِصَر عمره الذي قضاه في الطاعة.

فيا لها من قصةٍ عجيبةٍ، مِن أعجبِ ما تسمعُ وتقرأ، ونحن بحاجة إليها لنعلم أنه لا يأسَ من رحمة الله، وأن العبد مهما بَعُد عن طريق الإيمان والطاعةِ، فقد تُدْركه رحمة الله في أواخر عمُره، فيَحسُنَ عملُه، ويفوزَ بالجنات.

وها هي تبدأ الحكاية:

بعد وفاةِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يأتي الصحابيُّ الجليلُ أبو هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **علىٰ ناسٍ من التابعين، ويسألُهم**: حدثوني عن رجلٍ دخل الجنة لم يُصَلِّ قط.

وهنا يتملَّكُهم العجبُ، يا الله! دخل الجنةَ، ولم يُصَلِّ لله ركعةً؟! هل حدث هذا حقًّا؟ أيُعقل هذا؟ مَن هو؟

فقال لهم أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنه أُصَيرم بن عبد الأَشهل، هذا لقبه، واسمه عمرو بن ثابت بن وقْش الأنصاريّ.

فيا تُرَىٰ ما هي حكايةُ هذا البطلِ؟!

اسمع إذن:

لما جاء الإسلامُ كان الأنصارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من السبَّاقين إلىٰ الإسلامِ، المناصرين له، الباذلين له أرواحَهم وأموالَهم، ولم يأتِ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المدينة إلا وفي كلِّ بيتٍ في المدينةِ رجلٌ واحدٌ مسلمٌ علىٰ الأقل، فما من بيتٍ إلا وقد دخلَه الإسلامُ.

أتىٰ الإسلامُ يُحِلُّ الطيباتِ، ويُحرِّمُ الخبائثَ، وكان مما حرَّمه الإسلامُ ربا الجاهليةِ، ونزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥].

تردد وحيرة:

ورأىٰ عمرو بن ثابتٍ الإسلامَ والمسلمين فأعجبَه هذا الدينُ، لكنَّه تردّد في الدخولِ في دينِ الله عز وجل، جاءه الشيطان وقال له: كيف تُسلِم؟ إنّ لك أموالًا عند الناسِ تعاملتَ فيها بالربا، فإذا أنت أسلمتَ ضاعَ عليك المالُ، فدعْكَ من الإسلامِ حتىٰ لا يَضِيعَ عليك مالُك.

ووقَع عمرو أسيرًا لشيطانِه، واستسلمَ لنفسِه الأمارةِ بالسوء، وخدعتْه الدنيا بزينتِها فخُدِع، وغرَّته بمباهجِها فاغترَّ.

ومضَت سنتان من مَقدمِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المدينة ولا يزال عمرو علىٰ كفرِه وعنادِه، دعاه رجالٌ من قومِه إلىٰ الإسلامِ، ورغَّبوه فيه، لكنّ الله ما شرحَ صدرَه لهذا الدين العظيمِ بعدُ.

وتأتي السنة الثالثةُ من الهجرة ويخرجُ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابِه لملاقاة المشركين عند جبلِ أحدٍ، وفي هذه اللحظة يقذِفُ الله في قلب عمرو نورَ الإيمانِ، ويشرحُ صدرَه للتوحيد، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

۞ وخلت المدينة من ساكنيها:

ويخرج عمرو من بيتِه وقد ملأ الله قلبَه نورًا، وقد أشرق وجهُه بالإيمان، ويمشي في طرقاتِ المدينةِ

فيجدُها قد خلت من الرجال، فما فيها إلا النساءُ والأطفالُ والشيوخُ الكبار، وعددُ قليلٌ من الرجال.

وهنا يسأل عمرو: أين بنو عمي؟

فيقولون: في أُحد.

فيسأل: أين فلان؟

فيُجَاب: في أحد.

فيسال: وأين فلان؟

فيُجَاب: في أحد.

ويخبره الناسُ الخبرَ؛ أن رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج بأصحابِه لقتالِ المشركين في أحدٍ.

وهنا يتذكّر عمرو السنواتِ التي ضاعتْ من عمره وهو في ظلماتِ الشرك، ويملأ قلبَه الحزنُ والأسىٰ علىٰ ما مضىٰ من عمرِه، **ويأخذُ هذا القرارَ الجريء**: لابدّ من اللحاق برسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرتِه في

هذا الموقفِ العصيبِ، لابد من التضحيةِ وبذل الغالي والنّفيسِ في سبيلِ إعلاء كلمةِ الله سبحانه.

نور الإيمان يشرق في قلب عمرو:

إنّه الإيمانُ أيها القارئ الكريم، إذا خالطَتْ بشاشتُه القلوبَ، وملأ نورُه الصدورَ، فعل العجائبَ، وصنع الأبطالَ. لقد قذفَ الله في قلب عمروٍ نورَ الإيمان، وشرح صدرَه للإسلام، فلم يتحمّل المكوثَ في المدينة بين النّساء والأطفال، وهو صحيحٌ معافىٰ، بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه في مواجهة المشركين.

لم يفعلْ عمرو كما فعل المنافقون الذين أظهروا الإسلامَ، وشهدوا الشهادتين، وصلَّوا مع رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رياءً، وقد مُلِئَتْ قلوبُهم نفاقًا، وأُشرِبَت حبَّ الكُفرِ والشركِ، فارتدُّوا علىٰ أعقابِهم، وتَركوا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ساحةِ المعركة، وانقلبوا إلىٰ بيوتِهم خَاسِرين.

رجع عمرو إلىٰ بيتِه، فلَبِس دِرعَه، وأعدَّ سيفَه وترسَه، وودَّع أهلَه، ثم رَكِب فرسَه، وانطلقَ مُسرِعًا نحو المعركة، لينصُرَ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وينصرَ دينَ الله عزَّ وجلَّ.

أتىٰ عمرو ساحةَ المعركة، وإذا ببعضِ المسلمين يرَون عمرًا، فيقولون: إليك عنَّا يا عمرو، ما الذي جاء بك إلىٰ هنا؟ فقال: إني قد ءامنتُ.

۞ عمرو بين يدي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

ويأتي عمرو رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، **فيسألُه**: أرأيتَ لو أنّي أسلمتُ، أكان خيرًا لي؟

قال: «**نعم**».

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله.

ثم قال: يا رسول الله! أرأيتَ لو أنّي حملتُ علىٰ القومِ، فقاتلتُ حتىٰ أُقتَل أكان خيرًا لي، ولم أُصلِّ

صلاةً، غيرَ أنّي أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنّك رسول الله؟

قال: «**نعم**».

بطل في ساحة القتال:

استبشرَ عمرو بكلام رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَلئتْ قلبَه سعادةٌ لم يشعر بمثلِها من قبل، ودخل في عرض الناسِ، وحملَ علىٰ المشركين بشجاعةٍ وبسالةٍ.

واشتدَّ القتالُ، وحمِي الوطيسُ، واستبسلَ المسلمون، وصنعوا بطولاتٍ لم يشهدِ التاريخُ مثلَها، وأظهر عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسالةً في القتال، وما زال يَقتُل المشركين ويَفتِكُ بهم حتىٰ قتل منهم ناسًا، وتنبَّه المشركون لهذا البطلِ المِغوار الذي أدخل الرعبَ في قلوبِهم، وتجمَّع حول عمرٍو عددٌ كبيرٌ من المشركين، وتكاثروا من حولِه، فأصابوه بجراحٍ، وسقط الأسدُ الشجاعُ علىٰ الأرضِ، ودماؤه تنزِف بعدما أحدث في المشركين مَقتلةً.

وانتهتِ المعركةُ، وسقط مع عمرو سبعون شهيدًا، وسبعون جريحًا، أظهروا شجاعةً نادرةً، وصنعوا بطولاتٍ خالدةً، بذلوا أرواحَهم في سبيلِ إعلاء كلمةِ الله عزَّ وجلَّ، ورويتِ الأرضُ من دمائِهم الطاهرةِ نُصرةً لهذا الدينِ العظيمِ.

۞ حمية ووطنية أو لإعلاء كلمة الله:

وجعل المسلمون يلتمِسون قتلاهم ويَبحثون عن جرحاهُم، وبينما رجالٌ من بني عبد الأشهل يبحثُون إذ بهم يرَون عمرًا وقد أثخنَتْه الجِراحُ، فقالوا في تعجبٍ ودهشةٍ: يا عمرو! لقد تركناك وإنّك لمبغِضٌ للإسلام، مُصرٌّ علىٰ الكفرِ، فما الذي جاء بك؟ يا عمرو! أحدَبا علىٰ قومِك وغضبًا لهم، أو رغبةً في الإسلام؟

قال: بل رغبةً في الإسلامِ، آمنتُ بالله ورسولِه، وأسلمتُ، ثم أخذتُ سيفي فغدوتُ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقاتلتُ حتىٰ أصابَني ما أصابني.

ويُحمَلُ البطلُ المغوارُ إلىٰ أهلِه وجِراحُه تنزِف، وسمِع سعدُ بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما حدث، وكان سعدٌ سيّدَ بني عبد الأشهل وسيّد الأوسِ جميعًا، فأتىٰ عمروًا، فقال لأخته: سليه حِميَةً لقومِك، وغضبًا لهم، أم غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ؟

قال: بل غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ ورسولِه.

ولا زالتْ دماء عمرو تنزفُ، وجِراحُه تعظُمُ، فما استطاع الأطباءُ علاجَه، وجاءت ساعةُ الموت، وفاضَت روحُه إلىٰ خالقها.

۞ دخل الجنة وما سجد لله:

◈ ويعلمُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما حدَث لعمرو فيقول: «**إنه لمن أهلِ الجنةِ، عمل قليلًا وأُجِر كثيرًا**».

هنيئًا لك يا عمرو، فُزتَ وربِّ الكعبةِ بجنّةٍ عرضُها السماواتُ والأرض، لا، معاذ الله، ليست جنةً واحدةً،

إنها جنانٌ، فلقد قال رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ في الجنةِ مائةُ درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماءِ والأرضِ»[١].

لقد دخل الإيمانُ قلبَ عمرو، فسارع إلىٰ نصرة الله تعالىٰ ونصرةِ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يتوانَ، ولم يتخاذل، ولم يؤجّل، لم يقل: سأنتظر هنا حتىٰ يعود رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القتال، فأخبره بإسلامي، بل عرف الحق فاتّبعَه، ما أجّلَ، ولا سوّفَ، بل اغتنم اللحظة، ومَن يدري، ربّما لو قعد عمرو عن الخروج لجاءه الموت وهو في بيته، وفَاتَه هذا الخيرُ العظيم.

وصدق رسولُنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الرجلَ ليعملُ الزمنَ الطويلَ بعملِ أهلِ الجنةِ، ثم يُختَمُ له عملُه بعملِ أهلِ النارِ، وإنّ الرجلَ ليعمَلُ الزمنَ الطويلَ بعملِ أهلِ النارِ، ثم يُختَمُ له عملُه بعملِ أهلِ الجنّةِ**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥١).

فنسألك يا ربّنا حسنَ الختامِ، وعملًا صالحًا حتىٰ الممات، وصحبةً لنبيِّك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه في أعلىٰ الجنات.

❑ المصادر:

«صحيح البخاري» (٢٨٠٨)، «صحيح مسلم» (١٩٠٠، ٢٦٥١)، «سنن النسائي الكبرىٰ» (٨٥٩٨) بسندٍ حسنٍ، عن البراء. وسنن أبي داود (٢٥٣٧)، «مستدرك الحاكم» (٣/ ٢٨) بسندٍ حسنٍ، عن أبي هريرة. وسيرة ابن هشام (٢/ ٩٠)، و«مسند أحمد» (٥/ ٤٢٨)، بسندٍ حسنٍ عن محمود بن لبيد.

٩

همّة تُعانق السماء

علوُّ الهمة في طلب الحق، وبذلُ الغالي والنفيس في سبيله، هذه بطولة قصتنا. فارَقَ وطنَه، وترك ملاعِبَ صِبَاه، وهاجَر إلىٰ بلدٍ لا يعرِفُها، وطاف الدّنيا، بحثًا عن الدين الحق، بهمّةٍ وعزيمة لا تَعرفِ الكَلَل ولا المَلَل، بهمةٍ قلَّ أن تجد مثلها في هذه الدنيا.

إنّنا بحاجةٍ لهذه الهمّة للتّحرر من الأفكار الضّالة، والبحث عن طريق الحقّ في زمن كَثُر فيه الباطلُ وعلا نجمُه، حتّىٰ لقد صار المسلمون فِرَقًا وأحزابًا، وصار تمييزُ الحق عسيرًا علىٰ كثيرٍ من النّاس، وما ذلك إلا لضَعفِ همّتهم، وفتورِ عزيمتهم، وسرعةِ مَلَلِهم.

فاسمع لقصّةِ ذلك البطلِ صاحب الهمّةِ العالية، الباحث عن الحقيقة، إنّه رجلٌ من أهل فارس، من أصحاب الهمم العالية، قال فيه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

«لو كان الدينُ عند الثُّريَّا، لذهب به رجلٌ من فارسَ حتىٰ يتناولَه»[١].

۞ قد أظلك زمان نبي:

◈ **في مدينة عمّورية**[٢] قبل بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعيش بطل قصتنا، كان رجلا نصرانيًا متمسكًا بدينه، علىٰ دين عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ما حرّف، ولا غيَّر، ولا بدّل، وكان له راهبٌ علىٰ طريقته من التمسّك بالحق، وكان يحبُّه ويحترمُه ويجلُّه.

وكان لبطلنا غُنَيمة وبقراتٌ يقتاتُ منها، وقد لازَمَ هذا الراهبَ ملازمةً تامّةً، يتعلمُ من عِلمِه وزُهدِه وعِبادَتِه، فلمّا حضرت الراهبَ الوفاةُ، وحانت ساعةُ الوَدَاع، حزن بطلُنا علىٰ فراقه، فقد كان له خير عونٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦)، عن أبي هريرة.

(٢) كانت مدينةً تابعةً للدولة البيزنطية، ثم صارت مهجورةً بعد معركة عمورية سنة ٢٢٣هـ، التي انتصر فيها الخليفة المعتصم علىٰ الدولة البيزنطية، وبقاياها الآن في وسط تركيا.

علىٰ طاعة الله وعبادتِه.

فقال له بطلنا: قد حضرك ما ترىٰ من أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فإلىٰ من توصيني؟

قال الراهب: اعلم أنّ أفضلَ دينِنَا اليومَ النصرانيةُ.

فقال البطل: ويكون بعدَ اليومِ دينٌ أفضلُ من النصرانية؟

قال الراهب: نعم. يابني! والله ما أعلم أنه قد بقي أحد علىٰ مثل ما كنا عليه فآمرَك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج من أرض العرب، مُهاجره إلىٰ أرض بين حَرتين ذات نخل.

وإنّ فيه علاماتٍ لا تخفَىٰ:

بين كَتِفيه خَاتمُ النبوة، يأكلُ الهديّة، لا يأكل الصدقة.

فان استطعت أن تَخلُص [١] إلىٰ تلك البلاد فافعل؛ فإنه قد أظَلّك زمانُه.

---

(١) **تخلُص:** تصل.

فقال البطل: وإن أمرني أن أدعَ النّصرانية ؟

قال الراهب: نعم، فإنه نبيّ لا يأمر إلا بحقٍّ، ولا يقول إلا حقًا، والله لو أدركتُه ثم أمرني أن أقع في النار لوقعتها.

۞ البحث عن نبيٍّ بأرض العرب:

◈ **وعزم بطلُنا علىٰ الرحيل إلىٰ بلاد العرب**، إنّه يشتاقُ إليها، ويهفو قلبُه إلىٰ سكناها، يحلم بلقاءِ ذلك النّبي المبارَك، ويدعو ربّه أن ييسّر له صحبتَه وملازمتَه، ودَفن بطلُنا رفيقَه الراهب، ودعا له بالرحمة، وجلس بعمورية ينتظر اللحظةَ الفارقة، والساعةَ الفاصلة.

◈ **وبينما هو جالس في عموريةَ جاءه الخبر**: لقد نزل بالبلد تُجّار من العرب، فأتاهم مسرعًا والشوق يملأ قلبَه.

فقال لهم: أتحملونني معكم حتىٰ تَقدِموا بي إلىٰ أرض العرب وأُعطِيكم غُنَيْمتي هذه وبقراتي؟

قالوا : نعم.

فأعطاهم إيّاها وحملوه، وسار معهم في سلام وأمان، يحدوه الأمل في غدٍ مشرق، يرجو الخير من ربٍّ كريم، غيرَ أنّ الحياةَ أصابَته بمِحَنها وبلائها، فقد غدر به هؤلاء التّجار الجَشِعُون، فلمّا جاؤوا به وادي القرىٰ[١] ظلموه وباعوه عبدًا لرجلٍ من يهود بوادي القرىٰ.

قال البطل: فوالله لقد رأيت النّخل وطمعت أن تكون البلد الذي نَعَت[٢] لي صاحبي. وما حقَّت عندي[٣] حتىٰ قَدِم رجلٌ من بني قُرَيظة من يهود وادي القرىٰ فابتاعني من صاحبي الذي كنت عنده، فخرج حتىٰ قَدِمَ بي المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُ نَعته.

◈ وبعدما كان بطلنا رجلًا حرًّا من أولاد المترَفِين

---

(١) **وادي القرىٰ**: وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة.
(٢) **نعت**: وصف.
(٣) **حقّت**: تأكد وتحقق وصفُها.

تقلّبت به الدّنيا حتىٰ صار رقيقًا خادمًا، لقد فقد حُرّيَّتَه وصار عبدًا وهو الحُرُّ، لكن في سبيل تحقيقِ الحلمِ الذي يسعىٰ إليه فهو علىٰ أُهبَة الاستعداد لأن يُضَحّي بكل غالٍ ونفيس.

شوق وترقب:

وظلّ بطلُنا في رِقِّه مع سيده اليهودي سنواتٍ الله أعلم بِعَدَدِها، وفي خلال هذه السنوات بُعِث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة ولم يكن بطلُنا يعرف شيئًا من أمره؛ لانشغاله بخدمة سيّده.

ولا يزال بطلُنا في ترقُّبٍ لظُهُور ذلك النبيّ المبارك الذي أخبرَه عنه صاحبه الراهب الذي مات.

وفي يوم من الأيام وبينما بطلُنا يعملُ في نخلةٍ لسيّده جاء ابن عمٍّ لسيّده ذلك، فقال له: قاتل الله بني قَيْلَة[1]، والله إنّهم الآن لفي قباءَ مجتمعون علىٰ رجلٍ جاء من

(١) يعني: الأنصار.

مكة يزعمون أنه نبي.

قال بطل قصتنا: فوالله ما هو إلا أن سمعتها فأخذتني العُرَواء[١] حتىٰ ظننت لأسقطن علىٰ صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبر، ما هو؟!

فرفع سيّده يدَه فلَكَمَهُ لكمةً شديدة، وقال: مالَكَ ولهذا؟ أقبل علىٰ عملك.

قال البطل: لا شيء، إنما سمعت خبرًا فأحببت أن أعلمه.

۞ وبدأ الحلم يتحقق:

◈ ولا زالت كلماتُ الرّجُل يتردّد صَداها في أذن البطل: رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبيّ، لقد جاءت اللحظة التي ينتظرها منذ سنوات، إنه الحُلم الذي يترقّبُه بشغف، يا ترىٰ هل سيكون هو النبي الذي أخبرني عنه صاحبي؟ من يدري، ربما يكون مدّعيًا للنبوة، وما هو

---

(١) «**أخذتني العُرَواء**»: الرِّعدة والرعشة.

بنبي، ومن يدري، ربما يكون نبيًّا حقًّا. كلمات تترد في عقل بطلِنا.

◈ **وهنا تذكّرَ كلماتِ صاحبِه الراهب:** «وإن فيه علامات لا تخفىٰ: بين كَتِفيه خَاتمُ النبوّة، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة» .

۞ نبيٌّ لا يأكل الصدقة:

◈ **ولم يتحمل بطلُنا الانتظارَ لليوم التالي،** بل عزم علىٰ الذهابِ إلىٰ ذلك الرجلِ الذي يقولون عنه أنّه نبيّ، فلما جاء المساءُ أخذ طعامًا من عنده، فحمله وانطلق إلىٰ هذا النبي، وكان مقيمًا بقباء، فدخل عليه، فقال له: إنه بلغني أنّك رجلٌ صالحٌ ، وأنّ معك أصحابًا لك غرباء، وقد كان عندي شيءٌ من الصدقة، فرأيتكم أحقَّ أهل البلادِ بها، فها هو، فكُل منه.

◈ **وظلَّ يراقبُ ذلك النبي؛ لينظر هل سيأكل من الصدقة أم لا؟ قال:** فأمسك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بيده، وقال لأصحابه : «**كلوا**» ولم يأكل.

فقال في نفسه: هذه خُلّة مِمَّا وصف لي صاحبي.

◈ **ثم رجع إلىٰ بيته وهو فَرِحٌ مسرور**، يحدوه الأمل أن يكون ذلك هو النبي المبارك الذي ينتظرُه، فيسعد بصحبته في الدنيا والآخرة.

۞ هديةٌ وكرامةٌ:

◈ **وبعد أيام تحول النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إلىٰ المدينة**، فجمع بطلُنا بعضَ الطّعام، ثم جاء إليه.

فقال له: إني رأيتُك لا تأكل الصّدقة، وهذا هديةٌ وكرامةٌ ليست بالصدقة.

قال: فأكل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكل أصحابه.

فقلت: هاتان خُلّتان.

ولم يبقَ إلا خاتم النبوّة، يا الله! كأني بقلبِه يرجُف شوقًا لرؤيةِ هذا الخاتم المبارَك.

خاتم النبوة:

◈ **وفي يومٍ من الأيّام كان رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبع جنازةَ أحد المسلمين ببقيع الغرقد ومعه أصحابه، وبطلُنا يراقِب خُطُواته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يرفع عينَه عنه.

ثم استدار بطلُنا لعلّه يرىٰ خاتمَ النّبُوة في ظهرِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فلما رآني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استدبرته، عرف أني أستثبِتُ شيئًا قد وُصِف لي، فرفع رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلىٰ الخاتم بين كتفيه كما وصف لي صاحبي.

يا الله! لقد جاءت اللحظة التي ينتظرُها من سنوات، لقد خشِي أن يموت قبل رؤية ذلك النبي المبارك، لقد تحقق الحلم الذي ضحّىٰ في سبيله بكل غالٍ ونفيس، وظلّ يَعُدّ الأيام والليالي ينتظر تحقيقَه بشغفٍ، وها هو يرىٰ ذلك النبي المبارك الذي أخبره عنه صاحبُه.

قال: فأكببتُ عليه أقبّلُه وأبكي. إنّه بكاءُ الفَرح، ودموعُ السعادة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تحوّل يا سلمان**».

ومن سلمان؟

إنّه بطل قصتنا، سلمانُ الفارسيّ، سلمان ابن مَن؟ لا نعرف، لكنّه رجلٌ بألف رجل، وبطل قلَّ مثلُه.

وتحوّل سلمان، وجلس بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبرَه بقصته ورحلتِه الطويلة في سبيل البحث عن الحق، وبدأ سلمانُ يسرُدُ قِصّته من البداية، وهل لِقِصّتِه بداية غير التي بدأنا بها؟

نعم، إن لها بدايةً عجيبةً، فاسمع لسلمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحدّث رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصتِه:

عود إلى بداية الرحلة:

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت رجلًا من أهلِ فارسٍ، من أهلِ

أصبهان، من قريةٍ يُقَالُ لها جِيّ، وكان أبي دِهقان[١] قريته، وكان يحبُّنِي حبًّا شديدًا لم يُحبَّه شيئًا من مالِه ولا ولَدِه، فلم يزَلْ بِي حبُّه إيَّاي حتىٰ حبَسَنِي في البيتِ كما تُحْبَسُ الجاريةُ.

واجتهدْتُ في المجوسيّة حتىٰ كنتُ قاطنَ النار[٢] الذي يوقدُها فلا يتركها تخبو ساعة.

وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمةٌ فيها بعضُ العمل فشُغِل في بنيانٍ له يومًا فدعاني، فقال: أي بنيّ! إنّه قد شغلني ما ترىٰ من بنياني هذا عن ضيعتي هذه، ولا بد لي من اطِّلاعها. فانطَلِق إليهم - أي: العمال - فمُرهم بكذا وكذا، ولا تحتبس عليّ، فإنّك إن احتبست عليّ كنتَ أَهمّ إليّ من ضَيعتي، وشَغَلتني عن كل شيءٍ من أمري.

قال: فخرجتُ أُرِيدُ ضَيعته، فمررتُ بكنيسةٍ من

---

(١) **دِهقان**: رئيس.

(٢) «**قَاطِن النار**»: خازنها وخادمها، أراد أنه كان ملازمًا لها لا يفارقها.

كنائس النّصارىٰ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلّون

فقلت: ما هذا؟!

قالوا: هؤلاء النصارىٰ يصلون.

قال: وكنتُ لا أدري مِن أَمر الناس شيئًا لحبسِ أبي إياي في بيته، فلمّا مررتُ بهم، وسمعتُ أصواتَهم، دخلتُ إليهم أنظرُ ما يصنعون.

فلمّا رأيتُهم أعجبتني صلواتهم، ورغبت في أمرهم، **وقلت**: هذا والله خيرٌ من الدين الذي نحن عليه.

فوالله ما زلت جالسًا عندهم حتىٰ غَربت الشمس، وتركتُ ضَيعة أبي لم أذهب إليها.

وسألهم سلمانُ: أين أجد هذا الدين؟

فقالوا: بالشام.

حبس في السلاسل:

ولمّا تأخر سلمان ولم يذهب إلىٰ الضَّيعة خاف عليه

أبوه، وظلّ يبحثُ عنه هنا وهناك، وانشغل به عن عمله كلِّه، وبينما هو مهمومٌ حزينٌ علىٰ فَقد ولدِه وخوفِه من ضياعه إذ بسلمانَ يدخل عليه، فلما رآه هرع إليه، وقال: أي بني! أين كنت؟! ألم أكن قلتُ لك؟!

فقال له سلمان ببراءة: يا أبتِ! مررت بناس يُصلّون في كنيسةٍ لهم يقال لهم: النصارىٰ، فأعجبني صلاتهم ودعاؤهم، فجلستُ أنظر كيف يفعلون، فوالله ما زِلت عندهم حتىٰ غربت الشمس.

فقال: أي بني! ليس في هذا الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

فقال سلمانُ وقد ملأه حماسُ الشباب: لا والله ما هو خير من دينهم.

هؤلاء قوم يعبدون الله، ويدعونه، ويُصلّون له، ونحن نعبد نارًا نوقِدُها بأيدينا إذا تركناها ماتت.

قال: فخافني فجعل في رِجلي حديدًا، وحبسني في بيتٍ عنده.

وبينما سلمانُ في الحبس بَعث إلىٰ النصارىٰ، وقال لهم: إذا قدِم عليكم رَكبُ تجارٍ من نصارىٰ الشام فأخبروني بهم.

قالوا: نفعل.

۞ رحلة إلى الشام:

وبعد أيام قدم عليهم ناس من تُجّارهم، فبعثوا إلىٰ سلمانَ أنه قد قدم علينا تجار من تجارنا، فبعث إليهم سلمانُ: إذا قَضَوا حوائجهم، وأرادوا الرّجوع، فأخبروني بهم.

قالوا: نفعل.

جلس التجار ساعاتٍ أو أيامًا، فقَضَوا حوائجهم، فلما أرادوا الرحيل بعثوا إلىٰ سلمانَ، فلمّا وصلَه الخبرُ طَرَح الحديد الذي في رجله، وانطلق كالريح نحوهم

حتىٰ لَحِق بهم، فسار معهم حتىٰ قَدِم الشام.

◈ **وفي الشام كانت بداية رحلة سلمان في البحث عن الحق**، رحلةٍ مليئة بالمغامرة والهمّة العالية التي لا يُفَتّتُها الصّخر، رحلةٍ مليئة بالمشاقّ والأهوال، لقد ظلّ يَتَنَقّل من بلدٍ إلىٰ بلد بحثًا عن الحق، وطلبًا للثبات علىٰ دين الحق.

قَدِم سلمانُ الشامَ، فكان أهمُّ ما يَشغَلُه هو جواب هذا السؤال: **مَن أفضل أهل هذا الدين؟**

قالوا: الأسقفُ صاحب الكنيسة [١].

قال: فجئتُه فقلت له: إنّي قد رَغِبت في هذا الدين، وأحببتُ أن أكون معك، أَخدِمُك في كَنِيستك، وأعبدُ الله فيها معك، وأتعلّمُ منك الخَير، وأُصلّي معك.

فقال الأسقف: فكُن معي.

---

(١) **الأُسقف**: عالم النصارىٰ.

رجل سوء:

قال سلمان: فكنت معه. وكان رجلَ سوءٍ.

كان يأمرهم بالصدقة، ويرغّبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئًا اكتَنَزَه لنفسه، ولم يعطِ المساكين منها شيئًا، فأبغضتُه بُغضًا شديدًا؛ لِمَا رأيتُ من حالِه. فلم ينشب[١] أن مات، فلمّا جاؤوا ليدفِنُوه قلتُ لهم: إنّ هذا رجلُ سوءٍ. كان يأمركم بالصدقة ويرغّبكم فيها حتىٰ إذا جمعتموها إليه اكتنزها إليه ولم يعطِها المساكين.

فقالوا متعجبين مندهشين: وما علامةُ ذلك؟!

فقلت: أنا أُخرِج إليكُم كنزَه.

قالوا: هاتِه.

قال: فأخرجتُ لهم سبعَ قلالٍ مملوءةً ذهبًا ووِرِقًا.

فلمّا رأوا ذلك قالوا: والله لا يُدفَن أبدًا، فصَلَبُوه علىٰ خَشَبَة، ورمُوه بالحِجَارة.

---

(١) أي: لم يلبث، والمعنىٰ أنه مات بعد وقت قصير.

والجزاءُ من جنس العمل، ولَعذاب الآخرة أشدّ وأخزىٰ، وفي الحديث: «**إذا أبغض الله عبدًا دعا جبريلَ، فيقول: إنّي أبغض فلانًا فأبغضه، فيُبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يَبغُض فلانًا فأَبغضوه فيَبغُضونه، ثم يوضع له البغضاءُ في الأرض**».

۞ رجل صالح:

قال سلمانُ: ثم جاؤوا برجلٍ آخر، فجعلوه مكانَه، فوالله ما رأيتُ رجلًا قطّ لا يصلي الخمس أرىٰ أنّه أفضلُ منه، ولا أشد اجتهادًا، ولا أَزهَد في الدنيا، ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه، ما أعلمُني أحببتُ شيئًا قط قبلَه حبَّه.

وهذا جزاء من أطاع الله وراقبه، يحبُّه كلُّ شيء حتىٰ الشجر والدواب، وفي الحديث: «**إذا أحب الله عبدًا نادىٰ جبريلَ: إن الله يحبُّ فلانًا فأحبه، فيُحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهلُ السماء، ثم يوضع له القبول**

في الأرض»، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦].

إلى الموصل:

قال سلمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلم أزل معه حتىٰ حضرتهُ الوفاة.

فقلت: يا فلان! قد حضرك ما ترىٰ من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئًا قط حبّي لك، فماذا تأمرني، وإلىٰ من توصيني؟

فقال: أي بني! والله ما أعلم أحدًا علىٰ ما كنتُ عليه، لقد هلك الناس، وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلًا بالمُوصل وهو فلان، فائتِهِ فإنّك ستجده علىٰ مثل حالي.

لقد صار الدينُ في هذا الزمان غريبًا، وتلَبّس الحق بالباطل علىٰ كثير من الناس، وصار أكثر الخلق يعيشون في ضلالة وجهالة، وحرَّف كثيرٌ من العلماء كتابَ الله، وغيروا

وبدلوا، لقد أضحىٰ المتمسّك بدين الإسلام في هذا الزمان غريبًا لا يكاد يجد من يُعِينُه علىٰ طاعة الله سبحانه.

دَفن سَلمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صاحبَه ودعا له، وودّعه والحزنُ يملأ قلبَه علىٰ فراقه، ثم أعدَّ متاعَه القليل، وحمل زادَه، وانطلق في رحلةٍ ومغامرةٍ جديدة إلىٰ بلدٍ لم يرَه من قبل.

دخل سلمان المُوصل[1]، فسأل عن الرجل الذي دلَّه عليه الأسقف، فأخبره الخبرَ، **وقال له**: إن فلانًا أوصاني إليك أن آتيَك وأكون معك، وأخبرَني أنّك معه.

قال: فأقِم أي بني.

قال: فوجدتُه علىٰ مثل حالِه من الاجتهاد والزّهد في الدنيا، فأقمتُ عنده علىٰ مثل أمرِ صاحبه حتىٰ حضرَته الوفاة، **فقلت له**: إنّ فلانا أوصاني إليك، وقد حضرك من أمر الله ما ترىٰ، فإلىٰ من توصي بي، وبماذا تأمرني؟

---

(١) مدينة كبيرة في شمال العراق.

فقال: والله ما أعلم أي بني إلا رجلًا بنَصِيبين [١]، وهو علىٰ مثل ما نحن عليه، فالحق به.

رحلة إلى نَصِيبين:

قال: فلما دفنّاه لحقتُ بالآخر، **فقلت له**: يا فلان! إنّ فلانًا أوصىٰ بي إلىٰ فلان، وفلان أوصىٰ بي إليك.

قال: فأقم أي بني.

قال: فأقمت عنده فوجدته علىٰ مثل أمر صاحبيه، فأقمت عند خير رجل، فوالله ما لبثَ أن نزل به الموت، **فقلت له**: يا فلان! إنّه قد حضرك من أمر الله ما ترىٰ، وقد كان فلان أوصىٰ بي إلىٰ فلان، وأوصىٰ بي فلان إليك، فإلىٰ من توصي بي؟

قال: أي بني! والله ما أعلم أحدًا علىٰ مثل ما كنّا عليه إلا رجلًا بعمورية من أرض الروم، فأته فإنّك ستجده علىٰ مثل ما كنا عليه.

---

(١) مدينة تابعة لتركية علي الحدود بينها وبين سورية.

إلى عمورية:

قال سلمانُ: فلما واريتُه خرجتُ حتّىٰ قَدِمت علىٰ صاحب عَمُّوريَّة، فوجدته علىٰ مثل حالهم.

إنّها عزيمة صلبة وإرادة قوية، لا يكلّ ولا يملّ، يتنقل بين البلدان بحثًا عن خير الأديان، لا يفت في عضده شيءٌ، بعزيمة صلبة، وهمّة تعانق السماء.

سأضربُ في طولِ البلادِ وعَرْضِها
أنــالُ مــرادي أو أمــوتُ غريبًا
فـإن تـلِـفـتْ نفسي فلله دَرُّهـا
وإن سَلِمتْ كان الرُّجوعُ قَريبًا

◈ **ومِن عَمُّوريَّة كانت رحلة سلمانَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ المدينة، وانتهىٰ به المطاف بلقاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أُعجِب النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصّة سلمانَ، وكيف لا يُعجَب به وهو رجلٌ لا يعرف اليأس، لقد رزقه الله همّة تَطمحُ للمعالي، وعزيمةً كالصخر، لقد وضع النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده علىٰ سلمان يومًا، وقال: «**لو كان**

الإيمان عند الثريا لناله رجل من فارس».

وأحبَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُسمِع أصحابه رضي الله عنهم قصةَ سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحدّثهم بها.

الحرية:

وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن يُعتِق سلمانَ من الرِّق، فقال:** «**كاتبْ يا سلمانُ**»، فكاتَبَ سيّدَه علىٰ ثلاثمائةِ نخلةٍ يُحييها بالفقير[١] وأربعين أوقية.

قال: فأعانني أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنخل ثلاثين وَدِيَّةً[٢] وعشرين وديةً وعشرًا، كلُّ رجلٍ منهم علىٰ قدرِ ما عنده، حتىٰ اجتمعت ثلاثمائةُ ودية.

فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**فقِّر له**[٣]**، فإذا فرغت فآذِنِّي حتىٰ أكون أنا الذي أضعها بيدي**».

---

(١) **الفَقِير**: الحُفْرة التي تُحفَر لغرس النخل.

(٢) **الودية**: صغار الفسل.

(٣) **فقر**: احفر له.

قال: ففقرتها، وأعانني أصحابي، حتىٰ فرغنا منها، فخرج معي حتىٰ جاءها، فكنا نحمل إليه الودي فيضعه بيده ويسوي عليها، فوالذي بعثه بالحق ما ماتت منها وديةٌ واحدة.

قال: وبقيَت عليَّ الدراهمُ، فأتاه رجلٌ من بعض المعادن بمثل البَيْضة من الذهب فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أين الفارسي المسلم المكاتِب؟**».

قال: فدُعِيت له.

فقال: «**خذ هذه يا سلمان فأدِّ بها ما عليك**».

فتعجب سلمانُ، وقال: يا رسول الله وأين تقع هذه مما علي؟!

قال: «**فإن الله سيؤدي بها عنك**».

قال سلمان: فوالذي نفس سلمان بيده لَوَزَنْتُ لهم منها أربعين أوقية، فأديتها إليهم.

◈ وأُعتِق سلمانُ ولله الحمد.

قال سلمانُ: وكان الرقّ قد حبسني حتىٰ فاتني مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بدرٌ وأحدٌ، ثم عُتِقت فشهِدت الخندقَ، ثم لم يفتني معه مشهدٌ.

وهكذا ينتقل سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ إلىٰ دار الإسلام بعد رحلةٍ مليئة بالأهوال العِظَام، والمخاطر الجِسَام، لقد رحل بنفسه، وخاطر بها من أجل الوصول إلي الدين الحق.

۞ هلَّا رحلتَ:

فيا من أسرف علي نفسه وأساء في حقّ ربه جلّ في علاه.. أما آن لك أن ترحل بقلبك من دار المعصية إلىٰ دار الطاعة؟!

يابن آدم! إنّما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، وأنت في كل يوم تقترب من أجلك، وتتعجل موتك.

يا لفرحة من وقف مع نفسه وقفةً صادقةً وحاسبها

وأنّبها وأعادها إلىٰ رُشدها وهَداها إلىٰ صوابها.

يا لفرحة من أخذ بنفسه إلىٰ شاطئ النجاة، فالتزم طاعةَ ربه ومولاه، وابتعد عن معصيته جلّ في علاه.

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسطُ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، فلماذا لا تتوب، وتُقلِع عن ذنوبك؟!

لماذا لا تلبسُ ثوبَ النّدم والرجاء، وتدعو الله أن يغفر لك زلاتك وسيئاتك؟

لقد فتح الله عَزَّوَجَلَّ باب التوبةِ لمن أراد أن يتوبَ، إنه مفتوح دائمًا وأبدًا لمن أراد أن يتدارك نفسه وينقذها من الضلال والهلاك.

❑ **المصادر:**

مسند أحمد (٥/ ٤٤١)، والطبقات لابن سعد (٤/ ٧٠)، وسيرة ابن هشام (١/ ٢١٤) بإسناد حسن.

١٠

عجوزُ بني إسرائيل

إنها قلوبٌ تعلّقَت بالعرش، بينما في هذه الدنيا قلوب تطوف حول الحَشِّ، هِمَم تطوف حول عرش الرحمن، تطمح إلىٰ سكنىٰ الجنان، وهِمَم غايتها رغيف الخبز، ووظيفة جيّدة، ومنصب مرموق.

إنهم يعرفون عِظَم ما في الجنة من نعيم، يعلمون أنّ نعيم الجنة هو النعيم المقيم، خلودٌ فلا موت، وراحةٌ فلا تعب، وسعادةٌ فلا حزن، ولذاتٌ بلا تنغيص، إنها الجنة التي تقطّعت القلوب شوقًا إليها، وبُذِلت الأرواح في سبيل خِطبتِها، وأُنفِقت الأموالُ طمعًا في سُكناها، وهُجِرت اللّذات والشّهوات رغبةً في لقائها.

أعرابيٌّ يكرم النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

تبدأُ الحكاية عندما خرج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **من**

مدينته العامرة، وانطلق في سفرٍ له.

وبينما هو يسير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مرَّ برجل أعرابيٍّ مسلمٍ**، والعرب معروفون بكرمهم وجودهم، رأىٰ الأعرابيُّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتهلَّل وجهُه، وسعِد بلُقياه، واحتفل به، وأكرمَه أحسن إكرامٍ.

أُعجِب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بكرم الأعرابي**، وأَحَب أن يجازِيَه بمعروفه خيرًا، ويكافئَه علىٰ حسن ضيافته بِرًّا، فهو القائل: «**من صنعَ إليكم معروفًا فكافئوه**»[(١)].

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأعرابي: «**يا أعرابي! تعهَّدْنا، ائتنا**». يا أعرابي إذا جئتَ إلىٰ مدينتنا فتعال إلينا، سوف نكرمك كما أكرمتنا وزيادة، ولن نتوانَ في تلبية حاجاتك ورغباتك، هذا معنىٰ كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٦٨)، بإسناد صحيح.

تمر الأيامُ، ويأتي الأعرابيّ مدينةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرىٰ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأعرابيَّ فلا ينسىٰ فضلَه وإحسانَه، ولا يتهرّب منه كما يفعل بعض المخادعين، إنه لا ينسىٰ ما قاله له: «**يا أعرابي! تعهَّدْنا، ائتنا**».

سلني حاجتَك:

ويجدُ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الفرصةَ سانحةً لردِّ الجميل**، ومكافئةِ الأعرابيّ علىٰ حسن صنيعِه معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: «**يا أعرابي! ما حاجتك؟**» مرني بما تشاء، أفعله لك إن استطعت.

فكّر الأعرابيُّ في أمنياته، وفتش عن رغباته، يا تُرَىٰ ماذا يريد؟ وبماذا يحلُم؟

إنّه يقف أمام رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو صاحب الكلمة الأولىٰ في دولته بعد رب العالمين، وأمرُه مطاع، وبيتُ مال المسلمين تحت تصرُّفه، وكلُّ

المسلمين رهنُ إشارتِه، وقَبل ذلك فهو رسول رب العالمين، هو صاحب المعجزات والآيات الباهرات، ودعاؤه مُجاب عند رب السماوات.

كان للأعرابي حلمٌ يحلم به، ورغبةٌ يطمحُ إليها، وهدفٌ يسعىٰ جاهدًا إليه، فيا ترىٰ ما هو هذا الحلم؟

لقد كان حلم الأعرابي: «**ناقةٌ برحلِها، ويحلِبُ أهلي لبنَها**». كلُّ ما يتمناه الأعرابي ويطمَحُ إليه أن يكونَ عنده ناقة، يسافر بها إذا أراد السفرَ، ويَحلِب أهلُه لبنَها فيشربونه.

لقد كان همُّ ذلك الأعرابي كهمِّ كثيرٍ من المسلمين في زماننا، كلُّ ما يشغلُهم رغيفُ الخبز، فهو يقوم للعمل بعد طلوع الشمس سعيًا علىٰ قوتِه وقوتِ عياله، ولا يقومُ لصلاة الفجر التي فيها نجاتُه!

لم يتخيّل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جوابَ الأعرابي، وكان لكلامه وقعُ الصاعقةِ، أهذه أقصىٰ

أمانيك؟ يا للهول.

۞ عجوزُ بني إسرائيلَ:

وهنا أراد رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعلّم أصحابَه الكرامَ درسًا لا ينسَونه، بل ويعلّم أُمَّته من بعده درسًا في علوّ الهمة في طلب الجنة، فقال لِمَن معه من أصحابِه: **«عجِزَ هذا أن يكونَ كعجوزِ بني إسرائيل»**.

فقال له أصحابُه: ما عجوزُ بني إسرائيلَ يا رسول الله؟

مَن تلك المرأة عاليةُ الهمَّة، ساميةُ الأمنية، ما خبرُها؟ وما شأنُها؟

◈ تعالَ واسمعَ قصتها:

لما خرج موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فارًّا بدينه وبقومه من بطش فرعونَ وجنودِه، وبينما هم في طريق الهروب ضلَّ طريقَه، ولم يهتدِ إلىٰ سبيله، فسأل بني إسرائيل: «ما هذا؟» لماذا نضلُّ الطريق؟

قبر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

فقال له علماءُ بني إسرائيلَ: إنّ يوسفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين حضره الموتُ أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرُجَ من مصر حتىٰ تُنقَل عظامُه معنا.

فقال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مستفهمًا: أيُّكم يدري أين قبرُ يوسف؟

فقال علماء بني إسرائيل: ما يعلمُ أحدٌ مكان قبرِه إلا عجوزٌ لبني إسرائيل.

أرسل موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ المرأةِ العجوز من يقولُ لها: دُلِّينا علىٰ قبرِ يوسف.

فرصة العمر:

قالت: «لا والله حتىٰ تُعطِيَني حكمي». أشترِط شرطًا حتىٰ أدُلَّك علىٰ قبر يوسف.

فقال لها متعجبًا: ما حكمُك؟

فقالت: حكمي أن أكونَ معك في الجنة.

يا الله! تكون مع موسىٰ بن عمرانَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الجنّة بأن تدُلهَّم علىٰ قبر يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؟ وهل هذا عملٌ عظيمٌ يستحقُّ أن تدخلَ به الجنة؟

يا صاحبي! إن الحياة فرصٌ، والذكيّ من يغتنم تلك الفرص، وهذه امرأة قد تعلَّق قلبُها بجنّة الرحمن، فهي لا شك كانت سبَّاقةً إلىٰ طاعته سبحانه، وكانت همَّتُها أن تقرَّ عينُها ببشارة أنها من أهل الجنة.

انظر إلىٰ تلك المرأة العجوز وعلوِّ همتها، وسموِّ رغبتها، ما رغبت في الدنيا وبهجتها، ولا طمحت في الدنيا وزينتها، بل آثرت الباقي علىٰ الفاني، ولم تسبح طويلا في بحر الأماني.

وهكذا يجب أن تكون الهِمَم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ **«يحبُّ معاليَ الأخلاقَ، ويبغضُ سَفسَافها»**.

تدبَّر موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الأمر فإذا هو ليس بيده،

ففلانٌ في الجنة لا تكون إلا بوحيٍ من الخبير العليم، وأحجم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فلم يأتِه أمرٌ بذلك، فأوحي إليه: «أعطِها حكمَها».

فأعطاها حكمَها فانطلقتْ بهم إلىٰ بحيرةٍ مستَنقِعَةٍ ماءً، فقالت لهم: أنضِبوا هذا الماءَ، فلما أنضَبوا قالت لهم: احفُروا، فحفروا، فاستخرجوا جسدَ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلما أن أقَلُّوه من الأرضِ إذِ الطريقُ مثلُ ضوءِ النهار.

❑ المصادر:

الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠٤)، بإسناد حسن. وابن حبان (٧٢٣) والحاكم (٢/ ٥٧١) بسندٍ حسن في الشواهد.

١١

رفيق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة

كان أهل الصُّفةِ ناسًا فقراءَ من قبائلَ شتّىٰ، هاجروا إلىٰ مدينةِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس لهم في المدينةِ أحدٌ يعرفونه، فلا مال ولا أهل، ولم يكن لهم منازلُ ولا مأوىٰ يأوون إليه، فكان بيتُهم الذي يسكنون فيه مسجدَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستطيع لبنىٰ لهم منازلَ، لكنّ المسلمين كانوا في شظَفٍ من العيش.

لكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يَغفَلُ عنهم أبدًا، بل كان يتعاهدُهم، فإذا أتته صدقةٌ بعثَ بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها، وأشرَكَهم فيها، وكثيرًا ما كان يدعوهم إلىٰ تناول الطعام في بيته. وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزورهم، ويتفقد أحوالهم، ويعود مرضاهم، ويُكثِر مجالستهم، ويرشدهم،

ويواسيهم، ويُذَكّرهم ويعلّمهم.

كان من أهل الصفة هؤلاء شابٌّ حَدث السِّنَّ، اسمه ربيعةُ بن كعب الأسلمي، هو بطلُ قصتنا.

خادم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كان ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقيرًا محتاجًا، لكنّه جعلَ هدفَه في حياتِه أن يلزمَ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حِلِّه وتِرحالِه، وسفرِه وإقامتِه، ليس رغبةً في جمع مالٍ، ولا لأجل شيءٍ من متاع الدنيا الفاني، بل طمعًا في رضىٰ الرحمن، وصحبتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعالي الجنان.

قال ربيعة: كنت أَخدِمُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقومُ له في حوائجِه نهاري أجمعَ حتىٰ يصلِّي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العشاءَ الآخرةَ، فأجلسُ ببابِه إذا دخلَ بيتَه؛ أقول: لعلّها أن تَحدُثَ لرسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجةٌ.

قال: فما أزالُ أسمعُه يقولُ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

«**سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده**»، حتىٰ أملَّ فأرجعَ، أو تغلِبَني عيني فأرقدَ.

۞ سلني أُعطِك:

رأىٰ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ربيعةَ**، فإذا هو يبذل جهدًا في خدمتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأحبَّ أن يكافئَه ويجازيَه علىٰ إحسانِه خيرًا.

قال ربيعة: فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا لما يرىٰ من خِفَّتي له، وخِدمتي إياه: «**سلني يا ربيعةُ أُعطِك**».

قال: فقلت: أنظرُ في أمري يا رسول الله، ثم أُعلِمُك ذلك.

إن هذه لعلها أعظمُ فرصةٍ في حياة ربيعة، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلب من ربيعة أن يسألَه حاجتَه، وسوف يُعطيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يريدُ، إنّ ربيعة شابٌّ فقير، لا مالَ له، لا مسكنَ له، لا زوجةَ له، لا يملك من متاعِ هذه الحياة

أيَّ شيءٍ، ولو طلب ربيعة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ المال، أو مسكنًا يأوي إليه، أو أن يشفعَ له إلىٰ من يزوّجُه، فإن كان في استطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلن يتوانىٰ في إجابة طلب ربيعةَ ذلكم الشاب المحب لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رجع ربيعةُ وهو يفكّر كثيرًا: ماذا أطلبُ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ طاف عقلُه بكل ما يخطر علىٰ بالك وما لا يخطر من متاع هذه الدنيا، لكنّه حزم أمرَه علىٰ عدم سؤالِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أيِّ شيءٍ من هذه الحياة.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففكرتُ في نفسي فعرَفتُ أن الدنيا منقطعةٌ زائلةٌ، وأنّ لي فيها رزقًا سيكفيني ويأتِيني. **فقلت:** أسألُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآخرتِي؛ فإنه من الله عَزَّوَجَلَّ بالمنزلِ الذي هو به.

أسألُك مرافقتَك في الجنة:

وتمضي الساعات أو ربما الأيام، ويلقىٰ ربيعةُ

رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **فيقول له: «ما فعلتَ يا ربيعة؟»**.

قال: نعم يا رسول الله! **أسألُك أن تشفعَ لي إلىٰ ربِّك فيُعتِقَني من النارِ.** وفي رواية: **أسألُك مرافقتَك في الجنة.**

تعجَّب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **من كلامِ ربيعة،** ومن تلك الهمّة العالية.

فقال له: «من أمرَك بهذا يا ربيعةُ؟».

قال ربيعة: لا والله الذي بعثك بالحقِّ ما أمرني به أحد، ولكنك لما قلتَ: **«سلني أُعطِك»**، وكنتَ من الله بالمنزلِ الذي أنت به، نظرتُ في أمري، وعرُفتُ أن الدنيا منقطعةٌ وزائلةٌ، وأنّ لي فيها رزقًا سيأتيني، فقلتُ: أسألُ رسولَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لآخرتي.

قال: فصمتَ رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طويلًا **ثم قال لي: «إني فاعلٌ، فأعنِّي علىٰ نفسِك بكثرةِ السجودِ»**.

فانظر إلىٰ هذه الهمّة التي زَهَدت في حُطَام الدنيا الفاني، وسَمَت وعَلَت حتىٰ عانقت السماء، قد تعمل في دنياك وتَكدَح لجمع المال، لكنَّ غايتَك من ذلك أن تُعِفَّ نفسَك عن الحرام، وأن تُغنِي أهلَك عن سؤال الناس، وأن تُنفقَ في وجوه الخير والبر، فتنالَ بذلك أعلىٰ المنازل في الجنة.

❑ **المصادر:**

صحيح مسلم (٤٨٩)، ومسند أحمد (٤/ ٥٩)، بسند حسن.

١٢

فأين الله؟

البطولة الأولى

كانت لصاحبنا ابنةُ عمٍّ كانت أحبَّ الناس إليه، كان يحبها كأشدّ ما يحب الرجلُ النساءَ، فراودها عن نفسها فأبت وتمنَّعَت، وفي إحدىٰ السنوات أصابها قحطٌ وجدب، واحتاجت إلىٰ المال، فجاءته فطلبت منه مائة دينار.

خرج الرجل فجمع المال، ثم أعطاها مائة دينارٍ، وزادها عشرين دينارًا أخرىٰ علىٰ أن تخلّيَ بينه وبين نفسها، فأمكَنَته من نفسها، حتىٰ إذا قَدَر عليها، وقَعَد بين رِجليها، وجلس منها مجلس الرّجل من امرأته خافت وارتعدت، وبكت.

قال: ما يبكيك؟

قالت: فعلتُ هذا من الحاجة. يا عبد الله! اتقِ الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقّه، أُذَكِّرُك اللهَ أن تركب مني ما حرم الله عليك.

قال: أنا أحق أن أخاف ربي، انطلقي.

قال: فتركتُها مخافتَك، وابتغاءَ مرضاتِك، وتركتُ المائةَ دينار، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خَشيتك ففرّج عنا، ففرّج الله عنهم فخرجوا.

◈ **ومن عجيب أمر هذا الثالث** أنه لم يذكر طاعةً تقرَّب بها إلىٰ الله، وإنما ذكر كبيرةً كاد أن يفعلها، لكنّه تركها خوفًا من الرب الجليل، وعملًا ليوم الرحيل، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وهكذا يفعل الخوفُ من الله عَزَّوَجَلَّ بصاحبه، فمن خاف الله أعرض عن المحرمات، واستبق الخيرات، وتزوّد من الصالحاتِ، وحمَلَه خوفُه علىٰ

البعد عن السيئات، فأبدلَه الله بذلك حسناتٍ، وقد قال نبينا: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**قالت الملائكة: رب، ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئةً، وهو أبصر به، فقال: ارقُبُوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تَرَكها فاكتبوها له حسنةً، إنّما تركها من جراي**»[١].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سبعةٌ يُظلُّهم الله تعالىٰ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبُه مُعلَّقٌ في المساجدِ، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخافُ الله، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتىٰ لا تعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يمينُه، ورجلٌ ذكرَ الله خاليًا، ففاضَتْ عيناه**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع؛ منها (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

❑ المصادر:

«صحيح البخاري» (٢٢١٥)، «صحيح مسلم» (٢٧٤٣)، «مسند أحمد» (٣/ ١٤٣) بسند صحيح، «مسند البزار» (٩٠٦) بسند حسن، «الدعاء» للطبراني (١٩٢) بسند صحيح، «مسند الشاميين» (٣١٤٩) بسند صحيح.

البطولة الثانية

عن نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: خرج ابنُ عمر في بعضِ نواحي المدينةِ ومعه أصحابٌ له، ووضَعوا سفرةً له، فمرَّ بهم راعي غنمٍ، فسلّم.

فقال ابنُ عمر: هلُمَّ يا راعي، هلُمَّ، فأصِب من هذه السُّفرةِ.

فقال له: إنّي صائمٌ.

فقال ابن عمر: أتصومُ في مثلِ هذا اليومِ الحارِّ، الشديدةِ سمُومُه وأنت في هذه الجبالِ ترعىٰ هذا الغنمَ؟

فقال له: أي والله أبادرُ أيامي الخاليةَ.

فقال له ابن عمر – وهو يريدُ يختبِرُ ورعَه: فهل لك أن تبِيعنا شاةً من غنمِك هذه، فنعطِيك ثمنَها، ونُعطِيك من لحمِها، فتُفطِرَ عليه؟

فقال: إنها ليست بغنمٍ لي، إنها غنمُ سيدي.

فقال له ابن عمر: فما عسىٰ سيدُك فاعلًا إذا فقدَها، فقلتَ: أكلَها الذئبُ؟

فولَّىٰ الراعي عنه وهو رافعُ أصبُعَه إلىٰ السماءِ، وهو يقولُ: أين الله؟

قال: فجعل ابنُ عمر يُردِّدُ قولَ الراعي، وهو يقولُ: قال الراعي: **فأين الله؟**

قال: فلما قدِم المدينةَ بعثَ إلىٰ مولاه فاشترىٰ منه الغنمَ والراعي، فأعتقَ الراعي، ووهبَ له الغنمَ.

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقُلْ
خلوتُ ولكن قُلْ عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفَلُ ساعةً
ولا أن ما تُخفِيه عنه يغيبُ

❑ المصادر:

«الزهد» لأبي داود (٢٩٣)، «شعب الإيمان» للبيهقي (٤٩٠٨)، بسند صحيح.

١٣

باسم الله ربّ الغلام

التضحيةُ والبذلُ في سبيل إعلاءِ كلمة الله، هذه هي بطولةُ قصتنا. كانت غاية بطلِنا وهمُّه الذي يحمِلُه في قلبه أن يَنشُرَ دين الله في الآفاق، وأن يرفع كلمة الله في الخافقين، لقد كان علىٰ أُهبَة الاستعداد لأن يُرِيق دمَه رخيصًا عنده إذا كان في ذلك نصرةُ الدين، وإعلاء كلمة الحق، وهداية الخلق.

إنها بطولةٌ مفعمةٌ بالشجاعة والإقدام، تنُمُّ عن همّةٍ عاليةٍ، ورسالةٍ ساميةٍ، وهدفٍ عظيمٍ كان يحمله ذلك البطل الشجاعُ، وإليك قصةَ ذلك البطلِ الشابِّ الذي قلَّ نظيره في التّاريخ الإنساني كله.

همة ساحر:

كان فيمن قبلنا من الأمم مَلِكٌ ظالم جبَّار، وكان له ساحر، فلما كَبُر السّاحر قال للملك: إنّي قد كَبُرت

سنّي، وحضر أجلي، فابعث لي غلامًا أعلِّمه السحر.

لقد كان السّاحر حريصًا علىٰ ألا يموت عِلمُه بموتِه، فلابد من بقاء العلمِ بعد رَحيله من هذا الحياة، يحرص غاية الحرص علىٰ نشر العلم الذي تعلّمه، ولكن بِئسَ العلمُ الذي تعلَّم، إنه عِلم يضرُّ العبادَ ولا ينفعُهم، يذلّهم به ويستَعبِدُهم، يملأُ به قلوبَهم رُعبًا وخوفًا فتخضع رقابهم لهذا الملك الظالم المتجبر.

فأين علماء الإسلام من همّة هذا الساحر؟

ألا هل من مشمّرٍ عن ساعدِ الجِدِّ، ناشرٍ لدين الله، معلِّمٍ لكتابِ الله سبحانه وسنةِ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فتَّش الملكُ في مملكته عن غلام ذكيّ ثم أتىٰ به إلىٰ الساحر ليَنهلَ من علمِه الواسع، ويُفيض من بحره الغزير، لكنَّه بحر فساد وضلال عياذًا بالله.

وبدأ الغلام يَخرُج من بيتِه كل يوم إلىٰ بيتِ الساحر ليتعلّم السحر علىٰ يده، وأظهر براعةً وذكاءً في حسن تعلُّمِه، وتوقُّدِ ذهنِه.

نور الإيمان:

◈ **وفي يوم من الأيامِ وبينما الغلام يمشي في طريقِه إلىٰ الساحر** رأىٰ منظرًا ربّما لم يرَه من قبل، لقد رأىٰ رجلًا قد اعتزل الناس وجلس وحده في مكانٍ بعيد، وبنىٰ له خيمةً، ورآه يفعل أمورًا غريبةً عليه لم يرَ مثلها قبل، وأعجبَه ما يفعل.

واستأذن الغلامُ هذا الرجل، فجلس معه، وسمِع منه كلامًا فأعجبَه ما يقول، **فسأله في لهفةٍ وشوقٍ**: ما هذا الذي تفعلُه؟

قال: أعبُدُ الله.

فسأله: مَن هو الله؟

وظلّ الغلامُ يسألُ، والعابد يجيبُ، والغلام خاشعٌ منصتٌ لكلام العابد، وقد شرح الله صدرَه، ودخلَ الإيمانُ قلبَه.

وهكذا بدأ الغلامُ كلّما سار إلىٰ الساحر مرَّ علىٰ

العابد الراهبِ فجلس بين يديه وسمِعَ حديثَه العذْبَ عن الله سبحانه وتعالىٰ.

أحبَّ الغلامُ العابدَ، وصارَ لا يُفوِّت يومًا إلا ويمرّ عليه، ثم بعد ذلك يذهبُ إلىٰ الساحر.

◈ **وبدأ الغلام يتأخر عن الموعد المحدّد له مع الساحر**، وهنا بدأ الساحر يغضَب، وسأله: ما حَبَسَك؟ وعنَّف الغلامَ ووبَّخه، وحذّرَه أن يتأخر مرةً أخرىٰ، غيرَ أنّ الغلام كان إذا مرَّ بالراهب لا يستطيع أن يتجاوزه إلا بعد أن يجلسَ بين يديه، لقد أحبَّ الغلامُ دينَ الراهب، وأحبَّ أن يعرف كثيرًا عن ربه.

ومعَ تأخُّر الغلام مراتٍ ومراتٍ عن الموعد المحدد له مع الساحر بدأ الساحر يضربُه بسبب تأخيرِه. وليتَ الضرب اقتصر علىٰ الساحر، بل صار أهلُ الغلام أيضًا يضربونه علىٰ تأخيرِه، بعد تحذيرِهم له مراتٍ ومراتٍ.

وهنا اشتكىٰ الغلام إلىٰ الراهب، فقال له الراهب

الذكي: إذا خشِيتَ الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيتَ أهلك فقل: حبسني الساحر.

أخذ الغلام بنصيحة العابد، وكفاه الله بذلك شرَّ الساحر، وشرَّ أهلِه.

كرامةٌ لغلام:

ومرَّت الأيامُ.. والغلامُ يسمع كلّ يوم من الراهب، ويزداد حبًّا وتعلُّقًا بربه.

وبينما هو يمشي يومًا رأىٰ دابةً عظيمةً قد حبست الناس وسدَّتْ طريقَهم فلم يستطيعوا عبورَ الطريق، واغتنمها الغلام، وعدّها فرصةً عظيمةً ليزداد إيمانًا ويقينًا بما سمِعَه من الراهب، فقال في نفسِه: اليوم أعلمُ آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ اليوم أعلم أأمر الراهب أحب إلىٰ الله أم أمر الساحر؟

وأخذ الغلامُ حجرًا في يدِه، فرمىٰ به هذه الدابة العظيمة، وهو يقول: اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ

إليك وأرضىٰ لك من أمرِ الساحر فاقتل هذه الدابة، حتىٰ يمضِيَ الناس.

وكانت المفاجأةُ!

لقد سقطت الدابةُ العظيمةُ صريعةً علىٰ الأرض، ومضىٰ الناس يمشون، وعبروا طريقَهم بسلام، وظلّ بعض الناس يتساءلون: من قتل هذه الدابة؟

فقال لهم آخرون: لقد قتلها هذا الغلام.

فقال الناس: لقد علِم هذا الغلامُ علمًا لم يعلمْه أحدٌ.

۞ إنك ستُبتلى:

مشىٰ الغلام حتىٰ أتىٰ الراهبَ فقصَّ عليه ما حدثَ، فقال له الراهب: يا بني! أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرِك ما أرىٰ، وإنك ستُبتلىٰ، فإن ابتُليت فلا تدُلَّ عليَّ.

إنّ الذي حدث أمرٌ عظيم؛ فلقد أجرىٰ الله علىٰ يدِك كرامةً، والله يريد أمرًا ويُهيِّئ أسبابَه، فاعلم أنك قادمٌ علىٰ شدَّةٍ وبلاءٍ، فلا ترجع إلىٰ الوراء، وامضِ قدُمًا لجنّة عرضُها الأرض والسماء، وكن علىٰ يقينٍ بأنّك سوف تُبتَلىٰ في دينك بلاءً شديدًا.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

والرجلُ يبتلىٰ علىٰ حسَب دينه، فإن كان دينُه صُلبًا اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينِه رقَّةٌ ابتُلِي علىٰ حسَب دينِه.

يا بني! إنّي شيخٌ هَرِم، قد رقَّ عظمِي، وكبُر سِنِّي، فإذا شاع في البلاد أمرُك فلا تُخبِر عنِّي، فلستُ أقوَىٰ علىٰ البلاءِ والتَّعذيبِ، وأنا أريد أن أقضِي ما بقي من عمري أعبدُ ربي.

وبدأ أمرُ الغلام يشيعُ في البلاد كما تنبَّأ الراهبُ، وهاهم الناس يأتون إلىٰ الغلام أفواجًا بشتىٰ أنواع

المرضىٰ، هذا أبرصُ، وذاك أعمىٰ، وهذا أكمَه، فيدعو الغلام لهم، فيَشفَون بإذن الله الشافي سبحانه وتعالىٰ.

جليس الملك:

كان للملك جليسٌ قد عمِيَ، فأتىٰ بهدايا وتحفٍ كثيرةٍ إلىٰ الغلام، ووضعها بين يديه، وقال له: ما هاهنا لك أجمَع، إن أنت شفَيْتَني.

فقال له الغلام مُبصِّرا ومرشدًا: إني لا أشفِي أحدًا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنتَ بالله دعوتُ الله فشفاك.

فليس بيد أحدٍ من الخلق جلبُ نفعٍ أو دفعُ ضُرٍّ إلا بإذن الله تعالىٰ.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٠].

آمن الرجل بالله وحدَه، ونطق بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله، فدعا له الغلامُ، فشفاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعاد إليه بصرُه.

وحمِد الرجلُ ربَّه، وزاد يقينًا بالله، وثقةً بأنَّ ما كان عليه باطلٌ وضلالٌ، وأن الحقَّ مع هذا الغلامِ.

وأتىٰ الرجلُ إلىٰ الملك فجلس إليه كما كان يجلس من قبل، فقال له الملك متعجبًا: من ردَّ عليك بصرَك؟

قال الرجلُ المؤمنُ: ربي.

قال الملك بغرورٍ وكبر: أنا؟

قال المؤمنُ بثباتٍ وإيمانٍ: لا.

قال الملك بغضبٍ وتوعُّدٍ: ولك ربٌّ غيري؟

قال المؤمن برباطةِ جأْشٍ: ربي وربُّك الله.

فأخذه الملك وظلَّ يعذّبه بصنوف العذاب وأنواع العقاب حتىٰ أصابَه التعب والإعياء، فلم يتحمَّلْ، فدلَّ علىٰ الغلامِ.

ليلة القبض على الغلام:

ذهب جنودُ الملك فقبضوا علىٰ الغلام، وكبَّلوه في الأصفاد، وأتَوا به فوقف بين يدي الملك، **فقال له الملك ساخرًا**: يا بني! قد بلغَ من سحرِك ما تبرئ به الأكمَهَ والأبرصَ، وتفعلُ وتفعلُ.

فقال الغلام: إني لا أشفِي أحدًا، إنما يشفِي الله.

قال الملك بكبرٍ: أنا؟

قال الغلام: لا.

قال الملك غاضبًا: أولَك ربٌّ غيرِي؟

قال الغلام ثابتًا: نعم، ربي وربُّك الله.

فأخذ الملكُ الغلامَ، فلم يزل يعذبُه أشدَّ العذاب حتىٰ ضعُف عن التّحَمّل، وخارتْ قواه، فدلَّ علىٰ الراهبِ.

استشهاد الراهب:

ذهب جنودُ الملك فقبضوا علىٰ الراهب، وأتوا به إلىٰ الملك، ولا زال المك يعذِّبُه عذابًا شديدًا، ويوعِدُه ويهدِّدُه، **ويقول له:** ارجع عن دينك، وهو يأبىٰ أشد الإباء، وثَبت مع جَهد البلاء، وما تزحزح إيمانُه، بل زادَ تمسُّكًا بدينِه.

يَئِس الملكُ المتجبّر من رُجُوعِ الراهبِ عن دينِه، وخشِي أن ينتشر أمرُه في الآفاق، فدعا هذا المتجبرُ بالمِنشَار، فوُضِع المنشار في مَفرِق رأسِ الراهب، فشقَّه نصفين، حتىٰ وقع شقّاه.

ثم جِيء بجليس الملك، فقال له: ارجِعْ عن دينِك، فأبىٰ إلّا أن يموت علىٰ الإيمان، فأمر الملك بوضع المنشار في مَفرِق رأس الرجل، فشقَّه به نصفين، حتىٰ وقع شقاه.

خُيِّر الراهبُ والمؤمنُ بين الحياة في الكفر والهوان،

أو العيش في رضا الرحمن، والفوزِ بالجنان، فآثروا الباقي علىٰ الفاني، وثبَتوا في موطنِ المِحنة، وربطَ الله علىٰ قلوبِهم، نسأل الله الثبات حتىٰ الممات.

لقِيَ المسلمون في مكةَ من المشركين أذىً شديدًا، عذَّبوهم وأهانوهم وضيَّقوا عليهم، ليصدُّوهم عن دينِهم. وفي يومٍ من هذه الأيام الصعبةِ يأتي خبّاب بن الأرَتّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالسٌ علىٰ بُردَةٍ له في ظلّ الكعبة، فيقول: يا رسول الله! فقلت: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟

فقعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد غضِبَ غضبًا شديدًا، حتىٰ احمرَّ وجهه من الغضبِ، وقال: «**كان الرجلُ فيمن قبلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاء بالمنشارِ فيُوضَعُ علىٰ رأسِه فيُشَقُّ باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَط بأمشاطِ الحديد ما دون لحمِه من عظمٍ أو عصَبٍ، وما يصدُّه ذلك عن دينِه. والله ليَتمَنَّ هذا الأمرَ، حتىٰ يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلىٰ حضرموت، لا يخافُ**

إلا اللهَ، أو الذئبَ علىٰ غنَمِه، ولكنّكم تستَعجِلون»[١].

۞ تهديد وتخويف:

أتىٰ الملكُ بعد ذلك بالغلامِ فقال له مُهدِّدًا: ارجِعْ عن دينِك، فأبىٰ.

رأىٰ الملكُ أنَّ الغلامَ شابٌّ صغيرٌ، وأنَّه إذا خوَّفَه سوف يخضَعُ له ويذِلُّ، وما علِمَ أنَّ قلبَ هذا الشابِّ البطل قد امتلأ بمحبة الله، وأن الأيام لن تزيد هذا الشابَّ إلا ثقةً في ربِّه وإيمانًا به، وتمسكًا بدينِه.

دفع الملكُ الغلامَ إلىٰ بعضِ جُندِه، وقال: اذهبوا به إلىٰ جبل كذا وكذا، فاصعَدوا به الجبلَ، فإذا بلغتُم ذِروتَه وأعلَاه، فإن رجعَ عن دينِه فأتوا به، وإلا فاطرَحُوه واقذفوه.

۞ اللهم اكفنيهم بما شئت:

أخذ جنود الظلمِ والطّغيان الغلامَ الشّجاع، أوثقوه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

بالأغلال، وأحاطوا به من كل جانبٍ، وذهبوا وقد امتلأت قلوبُهم كِبرًا وغُرورًا. وما زالوا يمشون به حتىٰ أتوا الجبلَ الذي سمَّىٰ لهم الملك.

صَعَد الجنود بالغلام إلىٰ الجبل، نظروا إلىٰ الغلام فلم يروا عليه أثرَ خوف، بل رأوا قلبًا شجاعًا، وثباتًا عجيبًا، خوَّفوه فلم يخف، هددوه فلم يُفلحوا، وجاءت اللحظة التي سيطرحونه فيها من الجبل.

في هذه اللحظة كان الغلام يفكّر، كيف أنجو من هؤلاء الظلمة؟

هل أُسلِّم روحي لهم؟

لابد من المقاومة حتىٰ آخرِ نفسٍ، لكن كيف أقاوم، وليس معي سلاحٌ؟

بل كيف أقاوم وهم جنودٌ كثيرون، ومهما كنت شجاعًا، فالكثرة تغلبُ الشجاعة!

لقد بارَتِ الحيلُ، وانقطعَ الرجاءُ، وأيقن الغلامُ

بالهلاكِ والموتِ، لكنه تذكّر: كيف أَهلَك ومعي ربي؟

كيف أخاف والله في عوني؟

إن ربي لا يُعجزُه شيءٌ، إن ربي بيدِه كلُّ شيء، إنّ ربي لا يُضيِّع عبادَه المؤمنين، بل هو معهم ينصرُهم علىٰ عدوّهم، ويدفعُ عنهم البلايا، وينجِّيهم من الرزايا، ويفرّج عنهم الكربات، ويكشف عنهم البليّات.

وهنا قال الغلام كلمتَه الخالدة: اللهم اكفنيهم بما شئت.

يالها من كلمةٍ عظيمةٍ، علِم الغلامُ أنه لا قِبَل له بهذا الملك الجبار وجنودِه؛ فأوكل أمرَه إلىٰ الله القويّ الشديد.

يارب! أعوذُ بك من شرورهم، وأجعلُك في نحورِهم، فنجّني من بطشِهم وبغيِهم، وكن عوني علىٰ ردعِهم.

وكانت المفاجأة!

لقد اهتزّ الجبلُ، وبدأ الجنود يتساقطون واحدًا تلو الآخر، والغلام بينهم لم يُخدَش بخدشٍ، ولم يُصَب بأذىٰ، ومات الجنودُ جميعًا، ونجّا الله الغلام.

وهكذا من أوكل أمرَه إلىٰ الله نجا، ومن اعتمد علىٰ قوّة ربه عصَمَه من المهالك، ونصَرَه علىٰ كلِّ معتدٍ باطشٍ، فالله مع المؤمنين يحفظهم، وبعنايته يشملهم، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

۞ لا تحزن إنّ الله معنا:

لقد قال نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الكلمة: «**اللهم اكفنيهم بما شئت**»، ونجاه الله كما نجىٰ الغلام.

عندما خرج صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بطش أهل مكة مهاجرًا إلىٰ ربِّه ومعه رفيقُه أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لحِق بهم سراقةُ بن مالك علىٰ فرسٍ له، فقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! هذا الطلب قد لحِقَنا.

فقال: لا تحزن إنّ الله معنا.

رأىٰ سراقةُ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فتهلَّل وجهُه، وفَرِح واستبشر، لقد ضَمِن مكافأةَ قريش التي جعلوها لمن يأتي بمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وانطلق سراقة كالسَّهم نحو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يحدوه الأمل أن يمسك به، واقترب من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حتىٰ لم يبق بينهما إلا ثلاثة أمتار أو أقل.

وهنا بكىٰ أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وقال: يا رسول الله! هذا الطلب قد لحقنا.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لِمَ تبكي؟**».

قال أبو بكر: والله ما علىٰ نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك.

وهنا دعا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بتلك الدعوة العظيمة: «**اللهم اكفناه بما شئت**».

فساخت قوائم فرس سراقة إلىٰ بطنها في الأرض،

ووثب سراقة عن الفرس[١].

۞ ثبات الغلام:

◈ **نجا الغلام بفضل الله من جنود الملك**، فيا ترىٰ ماذا فعل؟

كان المتوقع أن يهرب من بَطش هذا الملك الغَشوم، لعله ينجو من ظُلمه، فيختلي بربه في مكانٍ ما في هذا الكون الفسيح فيعبدُ ربَّه، ولو فعل هذا ما عاتبَه أحدٌ.

لكن الغلام مع صِغَر سنّه يحمل قضيةً عظيمةً، وما زادته المحنُ والشدائدُ إلا إصرارًا علىٰ تحقيق هدفِه، لم يضعُفْ، ولم يجبُن، فغايتَه وهمَّه إعلاءُ كلمةِ الله، ونصرةُ الحق، ووصولُ هذا الدين إلىٰ جميع الخلق.

لم يفرّ الغلام من المعركة، بل أصرَّ علىٰ المواجهة، سلاحُه الفتاك الذي لا يصمد أحدٌ أمامه «اليقين والثقة بالله»، وما دُمتَ في معية رب العالمين وحمايتِه فمهما

---

(١) البخاري (٣٦٥٢)، وأحمد (١/ ٢).

بلغت قوة عدوك فهي (لا شيء) إذا قورنت بقوة الله القوي القاهر.

رجع الغلامُ إلىٰ الملك، فدخل عليه، وقد زاده الله إيمانًا، وملأ قلبَه سكينةً واطمئنانًا، فلمَّا رآه الملك فكأنما أصابته صاعقة، فقال له بدهشةٍ وتعجب: ما فعل أصحابك؟

فقال الغلام بثبات يضاهي الجبال الرواسي: كفانيهم الله.

وهنا غَضِب الملك، وزاد عنادُه واستكبارُه، وأتىٰ بجنودٍ آخرين، وأمرهم أن يحمِلوا الغلام في سفينة، ثم ينطلقوا به إلىٰ عرض البحر، فإن رجع عن دينه عَادوا به إلىٰ الملك، وإن أَبىٰ إلا التمسك بعقيدته أغرقوه في البحر.

۞ الغلام يفزع إلى خالقه:

انطلق الغلام مع الجنود، وركبوا السفينةَ العظيمةَ،

وساروا به حتىٰ تَوَسَّطوا البحر، وهنا فَزِع الغلام إلىٰ خالقِه، وأوكل حولَه وقوَّتَه إلىٰ ربه سبحانه، ونادىٰ ربَّه وفزع إليه: **اللهم اكفنِيهم بما شئتَ**.

وشقّت دعواتُ الغلامِ المؤمنِ السماءَ، وسمعها من يجيب دعاء المضطرين، وينَجّي عباده المؤمنين، وانكفأتِ السفينة بالجنود فغرقوا جميعًا، ونجَّىٰ الله الغلامَ الصالحَ.

وها هو الغلام البطلُ قد أقبل إلىٰ الملِك، وكلُّه عزيمةٌ وإصرارٌ علىٰ مواصلة السير في طريق الله، وأنه لن يحيد عن الحق مهما كانت العواقب، ولن يرجعَ عن إيمانه بربه مهما كانت العقبات.

رأىٰ الملكُ الغلام فأخذته دهشة عجيبة، **فقال للغلام**: ما فعل أصحابك؟

فقال الغلام بثبات ورسوخٍ: كفانيهم الله.

وهنا كان الغلامُ يفكّر في أمرٍ مهم جدًا، وأراد الغلام

اغتنام هذه الفرصة لتبليغِ دين الله إلىٰ الناس، وانتشال هؤلاء المساكين من ظلمات الكُفر، وكان الثّمن لهذه المهمةِ الخطيرة أن يبذلَ الغلام رُوحَه في سبيل إعلاء كلمة الله، لقد كان ثمنُ هذ المهمة الشجاعة أن تشرب الأرض من دم هذا الغلام البطل.

باسم اللّه رب الغلام:

قال الغلام: أيها الملك! إنّك لست بقاتلي حتىٰ تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي.

قال الملك: وما هو؟

قال الغلام: تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وتصلِبُني علىٰ جِذع، ثم خُذ سهمًا من كنانتي، ثم ضَعِ السهمَ في كبِد القوس، ثم قل: باسم الله ربّ الغلام، ثم ارمِني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فكَّر الملك في كلام الغلامِ وأُعجِب برأيه، فقد كان همُّ هذا الملك التخلصُ من هذا الغلام الذي بدأ أمرُه يقوىٰ مع مرور الأيام، ولم يَفطنِ الملكُ الظالم لما أرادَه الغلامُ الشجاع ببذلِه روحَه.

جَمَع الملكُ الناس جميعًا في صعيدٍ واحدٍ، وجاء بالغلام فصلبه علىٰ جِذع، ثم أخذ سهمًا من كنانة الغلام الصغيرةِ، ثم وضع السهمَ في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام، ورمىٰ الغلامَ بالسهم، فوقع في صدغه، فوضع الغلام يده في صدغه في موضع السّهم فمات من ساعته.

وهنا كانت المفاجأة التي لم تخطر علىٰ قلب الملك أبدًا!

لقد قال الناس: لقد علم هذا الغلام علمًا ما علِمَه أحدٌ.

وقالوا جميعًا في صوتٍ واحدٍ: آمنَّا بربِّ الغلامِ.

آمنَّا بربِّ الغلامِ.

آمنَّا بربِّ الغلامِ.

۞ ولست أبالي حين أُقتَل مسلمًا:

لقد بذلَ الغلامُ الصالحُ روحَه فداءً لإعلاء كلمة الله، ومات الغلامُ وأحيا الله بموتِه أمَّةً، لقد كان كلُّ ما يشغل بالَ الغلامِ أن يعبد الناس ربَّهم، لقد كانت غايتُه نشرَ دين الله بين الناس كافَّةً.

ولست أبالي حين أُقتَل مسلمًا

علىٰ أي شِقٍّ كان في الله مصرعِي

وذلـك فـي ذاتِ الإلـه وإن يشَأْ

يبارِكْ علىٰ أوصـالِ شِلْوٍ ممزَّعِ

◈ أتىٰ حاشيةُ الملك؛ فقالوا: أيها الملكُ! أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نَزَل بك حذَرُك، أَجَزعت أن خالفَك ثلاثة، فهذا العالم كلُّهم قد خالفوك، وآمنَ

الناسُ.

وهنا أمر الملكُ الجبارُ في كل طريق بالمدينةِ فخُدَّت فيه الأخاديدُ، وأمَر بالنيران فأُضرِمَت، وأمر بالناس فجُمِعوا، وقال لأعوانِه وأتباعه من الظلمة: من لم يرجِعْ عن دينِه فاقذفوه وأحرقوه فيها.

قام الجبابرةُ فأخذوا المؤمنين المُستَضعَفين، فألقوا بهم في النيران وأذاقوهم العذاب الأليم، ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

لكن، ما أهونَ عذاب الدنيا إذا قورن بعذابِ الآخرة، وإنّ لِهؤلاء المؤمنين في الآخرة نعيمًا مقيمًا، وسعادةً دائمةً، أما هؤلاء الجبابرةُ الظَّلمةُ فلهم في الآخرة عذابٌ لا ينقطع، وشقاءٌ لا ينتهي.

۞ يا أُمّاه! اصبري فإنّك على الحق:

كان من بين هؤلاء المؤمنين امرأةٌ آمنت بربها، وثبتت علىٰ دينها، فأتت ومعها ابنٌ لها ترضعه، فخافت

أن يُلقَىٰ بها في النار هي وولدُها، خافت علىٰ رضيعها الصغير، فكأنّها تقاعست، وترددت.

فأَنطَق اللهُ ولدَها الرضيعَ وهو في مهده: يا أُمّاه! اصبري؛ فإنّك علىٰ الحق.

فصبرت هذه المرأةُ الشجاعةُ، وبذلت روحَها في سبيل الله، وماتت علىٰ الإيمان بالله، فهنيئًا لها الثبات علىٰ الإيمان، وهنيئًا لها بإذن الله سكنىٰ الجنان.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج: ١ - ١١].

❑ المصادر:

«صحيح مسلم» (٣٠٠٥)، «مسند أحمد» (١/ ٣، ٦/ ١٧)، «سنن الترمذي» (٣٣٤٠) بسندٍ صحيح.

١٤ واها لريح الجنة

الشجاعةُ والإقدامُ، والبذلُ والفداءُ، والثباتُ في شدة المحنة، والتضحيةُ بالغالي والنّفيس في سبيل إعلاء كلمة الله، هذه بطولة قصتنا.

إنّه أسدٌ شجاع، وبطلٌ مِغوار، ومِثال نادرٌ علىٰ البَسَالة والفِداء، قدّم روحَه دفاعًا عن دين الإسلام، لم يتوانَ ولم يتراجع، إنّه أحد الأولياءِ الأتقياءِ، قال فيه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنّ من عباد الله من لو أقسم علىٰ الله لأبره**».

أنه رجلٌ شمّ رائحةَ الجنة وهو في الحياة الدنيا، فتحركت أشواقُه إليها، إنّه رجلٌ من هؤلاء الأولياء الذين نزل فيهم قول ربنا: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

غزوة بدر:

تبدأ قصتُنا في السنة الثانية من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد بلغ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحرُّكُ قافلةٍ كبيرةٍ لقريشٍ عائدةٍ من الشام، وكان يقودُها أبو سفيان صخرُ بن حرب، وكانت تحمِلُ أموالاً عظيمةً لقريش، وقد كان يحرسُها ثلاثون أو أربعون رجلًا، وقد أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدَ أصحابه لاستطلاع أخبارِ القافلةِ، فلما رجع إليه بخبرها نَدَب أصحابَه للخروج، وتعجّل بمن كان مستعداً دون أن ينتظر مَن رَغِب في الخروج من سكّان العوالي؛ لئلا تفوتهم القافلة.

دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه لإحراز عير قريش، ولم يُلزم أصحابَه بالخروج، وقال لهم: «**هذه عيرُ قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**»[1]، وقال: «**من كان ظهرُه حاضرًا فليركب معنا**»، فجعل

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٦١)، بسند صحيح إلىٰ ابن عباس.

رجالٌ يستأذنونه في ظهرانهم في علو المدينة، فقال: «**لا، إلا من كان ظهره حاضرًا**»[١]، فمن كان متجهّزًا للخروج خَرَج، ومن لم يتيسر له الخروج في الحال فلا لَومَ عليه في القعود.

وشاء اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يكون هذا اليوم ملحمةً عظيمةً بين أهل الإسلام والكفر عند بئر بدر، فَقَد المشركون جيوشهم، وبذلوا أموالهم لمحاربة دين الله، واستئصالِ شأفةِ المسلمين، لكنّ الله أنزل نصرَه علىٰ عباده المؤمنين، وجعل الدّبرة والذّل علىٰ الكافرين.

ويرجع من شَهِد بدرًا من المسلمين بالعزّ والظَّفر، والعلوّ والرفعة، فقد سأل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تعدون أهلَ بدرٍ فيكم؟**».

قال: «**مِن أفضل المسلمين**».

قال: «**وكذلك مَن شهد بدرًا من الملائكة**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١)، عن أنس.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٩٢)، عن رفاعة بن رافع الزُّرَقي.

حزن وشوق:

كان مِمّن لم يشهد غزوة بدر مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَس بن النضر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكانت غزوةُ بدر أولُ غزوةٍ خرج فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه مقاتلًا، فحَزِن أنس لفوات هذا الشرف وذاك الفضل، **وقال**: أولّ مشهد شهده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُيّبت عنه، إن بلّغني الله مشهدًا فيما بعدُ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرينَّ الله ما أصنع!

وهاب أن يقولَ كلمةً غيرها.

غزوة أحد:

وتمر الأيامُ، وبعدَ سنةٍ وشهرٍ من غزوة بدر تَحدُث ملحمةٌ أخرىٰ بين الإسلام والكفر في شوال في السنة الثالثة من الهجرة، إنّها غزوة أحدٍ.

ويخرجُ أهلُ مكة في جيشٍ قوامُه ثلاثةُ آلاف رجل، ومعهم مائتا فرس، وقد جعلوا علىٰ ميمنتهم خالدَ بنَ

الوليدِ، وعلىٰ ميسرتِهم عِكرمةُ بنُ أبي جهل، وقد كانوا يعدّون لهذه الغزوة منذ هزيمتهم ببدر، وجاؤوا بحدّهم وحديدهم، وجمعوا كلَّ قوتهم لحرب المسلمين.

وبعد مشاورة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **أصحابَه،** خرج بهم لقتال المشركين خارج المدينة، يحمل لواءَ المهاجرين مصعبُ بن عمير، ولواءُ الأوسِ مع أُسَيد بن حضير، ولواءُ الخَزرج مع الحَبّاب بن المُنذِر، وقد جمع المسلمون أكبر جيشٍ لهم آنذاك، وهو ألفُ رجلٍ، معهم فَرَسان فقط.

ونظّم النبيُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صفوفَ جيشه، فجعل ظهورَهم إلىٰ جبل أُحدٍ، ووجوهَهم تستقبلُ المدينةَ، وجعل خمسين من الرماة فوق جبل عينين المقابل لأُحد لحماية المسلمين من التفاف خيالةِ المشركين عليهم، وشدّد عليهم بلزوم أماكنِهم، وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفُنا الطيرُ فلا تَبرحوا مكانكم هذا حتىٰ**

أُرسِل إليكم»[١].

تخاذل الرماة:

ودارت رحىٰ معركةٍ عظيمةٍ عند جبل أحدٍ، واشتدّ القتالُ، وأبدىٰ المسلمون بطولةً وبسالةً، وتراجع المشركون وبدت عليهم بوادرُ الهزيمة.

فلمّا رأىٰ الرماةُ هزيمةَ المشركين قالوا لِقَائدهم عبدِ الله بن جبير: الغنيمةَ الغنميةَ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟

فقال عبد الله بن جبير: **أَنَسيتُم ما قال لكم رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قالوا: والله لنأتينّ الناس فلنُصِيبنّ من الغنيمةِ، ثم انطلقوا يجمعون الغنائم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كان خالدُ بن الوليد علىٰ خيالة المشركين، فلما رأىٰ الرماةَ نزلوا من علىٰ الجبل رأىٰ الفرصة سانحةً، فقام

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩)، عن البراء بن عازب.

بالالتفاف حول المسلمين، ولمّا رأىٰ المشركون ذلك عاد إليهم حماسُهم، وبدأوا يُقاتِلون بضراوةٍ، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين.

۞ بداية الانهزام:

وبدأ جيش المسلمين في الانهيار، وجعلوا يقاتلون دون تخطيط، بل لم يعودوا يُمَيِّزُون بعضَهم البعض، حتىٰ لقد قتل بعض المسلمين بالخطأ اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – والد حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – وحذيفةُ يصيح فيهم: أبي، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين!!

وشاع الخبر بين الصحابة: لقد قُتِل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذ كثيرٌ من المسلمين يَتراجعون ويَنهزمون، وجعل أبطالُ المسلمين وشجعانُهم يَتساقطون شهداء واحدًا تلو الآخر، بعدما ضَربوا البطولاتِ النادرة في الشجاعةِ والإقدام، والبذلِ والفداء، **وكان من هؤلاء الأبطال ذلك الأسدُ الشجاعُ**

أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نظر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **إلىٰ المسلمين** فرأىٰ كثيرًا منهم قد ترك القتالَ وانهزم، ونظر إلىٰ المشركين وهم يقاتلون بغيظٍ وحَنَق، وسيوفُهم تقطُرُ من دماءِ المسلمين، فملأَ قلبَه الحزنُ، وعصر كبدَه الألمُ، ورفع عينه إلىٰ السماء، وقال: اللهم إنّي أعتذر إليكَ مِمّا صَنَع هؤلاء - يعني أصحابَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين انهزَموا، وأَبرأُ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين.

واهًا لريح الجنة:

ثم أشهَر سيفَه، وامتطىٰ جوادَه، وخرج كالسّهم يريد الانقضاض علىٰ المشركين، وبينما هو في طريقه لاختراق صفوف المشركين مرّ بسعدِ بن معاذ، فقال له أنس: يا أبا عمرو، إلىٰ أين؟

واهًا لريح الجنة[1]، وربِّ النّضر إني أجد ريحَها من

(١) قوله: (**واهًا**): قاله إما تعجبًا، وإما تشوقًا إليها، فكأنه لما ارتاح لها=

دون أحد [١].

فقال له سعد: **أنا معك**.

قال سعد لرسول الله: فما استطعت يا رسول الله أن أصنع ما صنع [٢].

ويُروَىٰ: **أنّ أنس بن النضر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انتهىٰ إلىٰ رجال المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟

= واشتاق إليها صارت له قوةُ مَن استنشقها حقيقةً.

(١) قال العلماءُ: يُحتمل أن يكون وجد ريح الجنة حقيقةً، أو وجد ريحًا طيبةً ذكّرَهُ طِيبها بطيب ريح الجنة، ويجوز أن يكون أراد أنه استحضر الجنة التي أُعدت للشهيد فتصور أنها في ذلك الموضع الذي يقاتل فيه، فيكون المعنىٰ: إني لأعلم أن الجنة تُكتَسَب في هذا الموضع فأشتاق لها.

(٢) قال العلماء: «فلم أستطع أن أصنع ما صنع»: ظاهره أنه نفىٰ استطاعة إقدامه الذي صدر منه حتىٰ وقع له ما وقع من الصبر علىٰ تلك الأهوال، بحيث وجد في جسده ما يزيد علىٰ الثمانين بين طعنة وضربة ورمية، فاعترف سعد بأنه لم يستطع أن يُقدِم إقدامه ولا يصنع صنيعه. والبنان: الإصبع، وقيل طرف الإصبع.

قالوا: قُتِل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فماذا تصنعون بالحياة بعدَه؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

شجاع مغامر:

ويخترقُ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **صفوفَ المشركين بشجاعةٍ وبسالةٍ**، لم يَأبَه لروحِه، ولم يخشَ الموت، ولم يخَف جموعَ المشركين الغَفِيرة، ولم يلتفت لتَخَاذُلِ المتخاذلين، ولم يعبأ بانهزام المنهزمين.

ولست أبالي حين أُقتَل مسلمًا
علىٰ أي شِقٍّ كان في الله مصرعِي
وذلـك فـي ذاتِ الإلـه وإن يشَأْ
يبارِكْ علىٰ أوصـالِ شِلْوٍ ممزَّعِ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام (٢/ ٨٣)، وهو مرسل، فلا يصح.

دخل أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وحدَه وسط جموعِ المشركين الغفيرة،** فقَتل من قتل منهم، وجَرح من جرح، ولكنّ الكثرة تغلب الشّجاعة، فلم يزل يُقَاتِل ويَذُود عن حِيَاض الدين حتىٰ آخرِ نفَس، ولم يضع السيف من يده إلا وقد فارقت الروحُ ذلك الجسدَ الطاهرَ المبارك.

◈ **وانتهت المعركةُ بهزيمةِ المسلمين،** وسلَّم الله نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القَتل، لكنّه جُرِح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجُرح سبعون مسلمًا من أبطال المسلمين، واستُشهِد سبعون مسلمًا بعدما ضَربوا مثلًا عظيمًا في الثبات والبَذل والفداء.

وجعل المسلمون يتفقّدون من كان في المعركة من الشهداء والمصابين؛ ليداوُوا الجرحىٰ، ويدفِنُوا الشهداء.

ورَاعَهُم هولُ منظرِ أحدِ أبطال المسلمين الشهداء؛ لقد رأوا في جسده بضعًا وثمانين جُرحًا، ما بين ضربةٍ بسيف، أو طعنةٍ برمح، أو رميةٍ بسهم، وقد اختفت معالم

وجهه، ومثَّل به المشركون من غيظهم وحَنَقهم، فقَطَعوا أُذُنَه، وجَدَعوا أنفَه، فلم يعرفه أحدٌ من المسلمين.

وظلّ الناس يأتون إلىٰ ذلك البطل لعلَّ أحدًا يعرفُه، وبينما الرُّبَيِّع بنت النضر تنظر إلىٰ هذا البطل الشجاع رأت أطرافَ أصابِعه، فأصابَ قلبَها رجفةٌ، وسالت من عينيها دمعاتٌ، وقالت بصوتٍ تخنقه العبرات: هذا أخي أنسُ بن النضر، لقد عرفتُه من بَنَانه رضي الله عنه، وكان حَسَن البَنان [١].

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكانوا يَرَون أنّه نزل فيه وفي أصحابه هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

❑ المصادر:

«صحيح البخاري» (٢٨٠٥)، «صحيح مسلم» (١٩٠٣).

---

(١) **البنان**: الإصبع، وقيل: طرف الإصبع.

خاتمة

هذا ما تمّ لي جمعه في هذا الجزء، فأسأل الله أن يكتب هذه الكلمات في ميزانِ حسناتِنا، وأن يجعلَنا هداةً مُهتدين، وأن يثبّتنا علىٰ طريق الحق، وأن يجعلَنا ممن اعتبر بأخبار من غَبَر، وأقتَفَىٰ أثرَ الأنبياء والصالحين، وكان أُنسُه في أخبارهم، وسعادتُه بالنظر في أحوالِهم.

فإن أصبتُ فلله الحمد والفضل، وإن أخطأتُ فأستغفر ربي وأتوب إليه، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وصلِّ الله علىٰ نبيِّنا محمد، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

سعيد القاضي